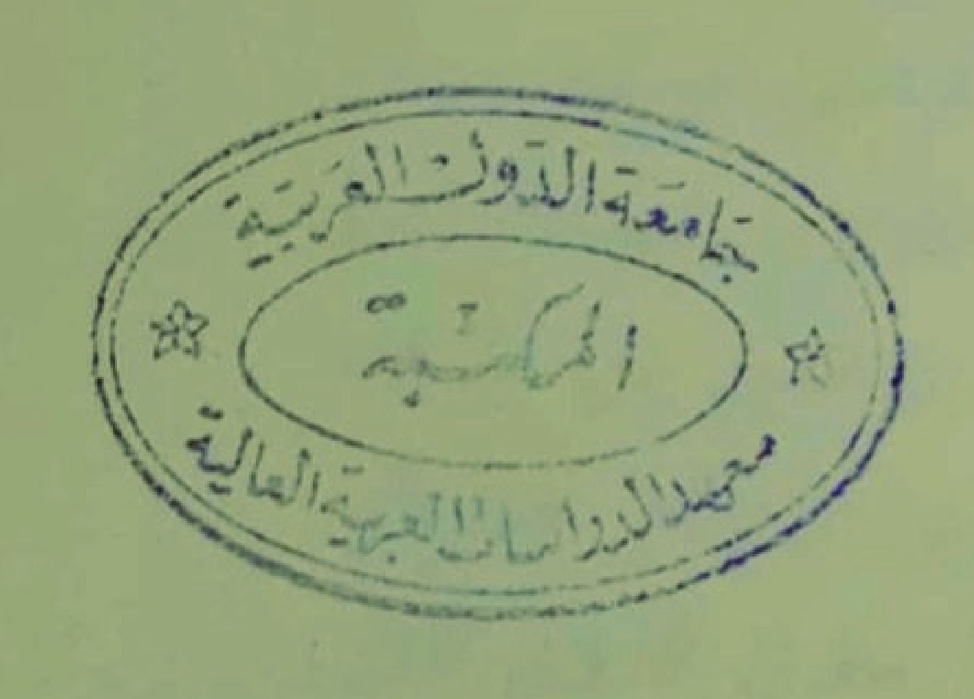


معهد الدراسات العربية العالية

مملكة الفونج الإسلامية



محاضرات

ألقاها

الدكتور مكي شبيكة

على طلبة قسم الدراسات التاريخية والجغرافية

١٩٦٣

١٩٦٤

مملكة الفونج الاسلامية

السودان قبل الفونج

لا بد لنا ونحن نؤرخ نشأة دولة فى ظروف غامضة نادرة المصادر أن نلتمس ما كانت عليه الحالة فى الإقليم الذى امتد عليه نفوذ هذه الدولة فمنذ الأسرات الأولى فى تاريخ مصر القديم نجد بلاد النوبة السفلى ما بين الشلالين الأول والثانى متأثرة بالحضارة المصرية حيث رأى الفراعنة فى محاجرها الجرانيتية مادة صالحة لمبانيهم ورأوا فيها جسراً يعبرون عليه لتبادل التجارة مع الأراضى الجنوبية . وانتهت الدولة المصرية القديمة والعلاقات بين مصر وبلاد النوبة السفلى لم تتعد التجارة والتعدين . وبعد عهد الاضمحلال الأول الذى تلاه نشأة الدولة الوسطى فى مصر رأى الفراعنة أن يستعيدوا سيطرتهم على هذا الجسر التجارى وتم لهم ماأرادوا بعد بعض المقاومة ورأوا هذه المرة إنشاء حصون تحميهم من غارات البدو أو من تمرد يقوم به سكان المنطقة . وبديهى أن يزامل هذا تأثر بالحضارة المصرية . وامتد هذا النفوذ الحضارى إلى مافوق الشلال الثانى وظهرت مدن هى ملتقى طرق التجارة وتبادل السلع . وعند انهيار الدولة الوسطى كانت مصر تحمى ما بين الشلالين الأول والثانى ويمتد نفوذها الحضارى إلى ما فوق الشلال الثانى .

وعند ما قامت الدولة الحديثة فى مصر دولة التوسع والفتوحات رنت بأبصارها إلى الأراضى الجنوبية لاستعادة العلاقات التجارية والسيطرة على وادى النيل جنوباً . وفى هذه المرة بفضل التفاعل الحضارى السابق كان الطريق ممهداً للاحتلال الكامل إلى الشلال الرابع بل أطلق الباحثون على هذه الحقبة لفظة « التمصير » بمعنى أن المنطقة أصبحت

جزءاً من مصر من حيث الحضارة والتأثر بها . وسرعان ما قام جهاز إدارى يجلس على قمته نائب الملك فى عاصمته نبتا بالقرب من كريمة الحالية فى دنقلا ولاهتمام الفراعنة بهذه المنطقة كان اختيار نائب الملك فى أول الأمر من بطانة الملك وأطلق الباحثون على المنطقة اسم كوش . وعندما بدأ جسم الدولة ينحل فى مصر ودخلت المنازعات والمنافسات الداخلية كان حاكم كوش يتدخل فى الأمر بفرق رماته المدربه لنصرة فريق على آخر وأخيراً عندماسيطر الليبيون على مصر رأى فيهم حكام كوش غاصبين ورأوا أنهم (كوش) حماة للحضارة والديانة المصرية . وبعد أن مهد كشتا دخل بعنخى بجيوشه النوبية أرض مصر وطرد الليبيين واستولى على مصر بكاملها . وتوالى على حكم وادى النيل الموحد شباكو وشبكتو وتهراقا وتانوت آمون . وأثناء هذه الفترة نقلوا العاصمة من نباتا إلى طيبة وكان لقبهم ملك مصر وكوش وأخيراً دخلوا فى نزاع مع الأشوريين وبعد وقائع أنهزم فيها الكوشيون تراجعو إلى مقرهم فى نباتا .

وفى نباتا بعد تقهقرهم من مصر باشروا مهام ملكهم باستقلال كامل لا تشوبه شائبة واتخذوا لأنفسهم لقب الملوك منذ أن بدأوا غزو مصر للقضاء على سيطرة الليبيين . وتعاقبت عناصر أجنبية على حكم مصر وظلت نباتا حامية تراث المصرية الفرعونية . ومن يدرس منطقتى حلفا ودنقلا ويتأكد ضيق الرقعة الزراعية فيهما يقوده المنطق إلى أنه لابد من هجرة بعض السكان إلى مجال حيوى أرحب حينما يفيض السكان على الإمكانيات الزراعية إذ لا مجال للتوسع فى كثير من أجزاء المنطقتين . والهجرة لابد وأن تتخذ طريقاً للجنوب على مجرى النيل ولكنه ملىء بالصخور والجنادل فى منطقتى المناصير والرياطاب حتى بربر . والرقعة الزراعية أضيق منها مما فى دنقلا . ولابد من عبور الصحراء من منطقة نباتا إلى ملاقاة النيل ثانية فى أرض الجعليين الحالية . وهناك فى شرقى النيل

بالقرب من كبوشية وإلى شندى جنوبها وإلى الصحراء الشرقية قبالتهـا أسس فرع لحـكومة كوش هناك أولا واتخذوا مروى القديمة (بالقرب من كبوشية) عاصمة ثانية لهم . وأخير صارت عاصمة أولى .

وإقليم مروى القديمة يمتاز باتساع رقعة أراضية التى يمروبها النيل . وامتداد هذه الأراضى إلى الجنوب مسافات بعيدة وفوق ذلك فالأراضى التى تقع على شرقى النيل وغربه وخاصة الشرقية تهطل فيها أمطار بكميات تنبت العشب المراعى وقد تصلح للزراعة المطرية وتنبت من الأشجار ما يصلح لصناعة المراكب وللوقود وتمر عليها القوافل التجارية متجهة الشرق حتى سواحل البحر الأحمر وغربا بالكوردفان ودارفور وربما لا بعدهما وشمالا تصلها بالجزء الشمالى من المملكة وجنوباً بأرض الرقيق وحاصلات المناطق ذات الأمطار الغزيرة .

وأمتازت مروى بصناعة الحديد حيث توجد الأحجار التى تحوى المادة الخام له وحيث خشب الوقود لصهره متوفر . وربما كانت بداية هذه الصناعة من عهد تهراقا حيث تبين له أن قوة الأشوريين الكاسحة تعتمد فى الدرجة الأولى على الأسلحة المصنوعة من الحديد وكانت آنذاك بمثابة سلاح جديد يجعل من القوة التى تستخدمه لأول مرة ميزة حربية لا تقاوم . وأثار هذه الصناعة تدل عليها الأوانى والأسلحة التى أكتشفت والتى أمتد أثرها إلى أجزاء أخرى من القارة الإفريقية ومن التلال التى لا تزال ظاهرة خبث (SLAG) الحديد . وهذه الحقيقة عند أكتشافها جعلت البروفسير سايس يطلق على مروى برمنجهام .

لسبب ما بدأت حضارة مروى فى التدهور وقضى عليها عيزانا ملك أكسوم ودخلنا فى حقبة غامضة حتى بدأت أخبار السودان تظهر عند دخول المسيحية فية وتحدثنا الروايات عن وجود ثلاث دول نوبية الأولى

شمالية وتسمى نوباديا وعاصمتها فرس والثانية فى أقليم دنقلا وتدعى المقره وعاصمتها دنقلا العجوز والثالثة علوه وعاصمتها سوبا على شاطىء النيل الأزرق الشرقى جنوبى الخرطوم بقليل . وكما حدث فى العهود السابقة والعهود التالية فان الأحداث فى مصر لا بد وأن تؤثر على السودان فعندما ناهض أباطـــرة الرومان المسيحية وتعرض من اعتنقوها إلى الاضطهاد فى مصر لجأوا إلى الصعيد وبعضهم إلى الصحراء وتعمق البعض الآخر فى بلاد النوبة. وتأثر النوبيون بهم ودخل بعضهم فى الدين الجديد حيث فقدت الديانات المصرية القديمة فعاليتها .

وعندما اعترفت الدولة الرومانية بالمسيحية توالت البعثات التبشيرية على بلاد النوبة ونشطت هذه فى عهد الإمبراطور جستنيان (٥١٧-٥٦٥م) إذ كان يناصر مذهب الملكانية وهو المذهب الرسمى لبيزنطة ضد مذهب الكنيسة القبطية ووجدت هذه الأخيرة نصيراً فى زوجة الإمبراطور نفسه تيودورا وتعمقت المسيحية نتيجة هذا الصراع والتسابق فى كل أجزاء المملكات النوبية .

ولما جاء الفتح الإسلامى بقيادة عمرو بن العاص واجه المسلمون مملكتين نوبيتين مقره فى دنقلا وعلوة جنوبها . والظاهر أن نوباديا الشمالية أصبحت تابعة لمقره ويتضح لنا أن المجتمع أنذاك يتكون من طبقتين — طبقة حاكمة وطبقة الشعب وأن الملوك يمتلكون كل الأراضى ويعتبرون رعاياهم بمثابة عبيد لا حق لهم فى امتلاكها أو التصرف فيها بالبيع والشراء . ولابد للمسلمين وقد ضموا مصر للأملاك الإسلامية أن يؤمنوا طريق تجارتهم للجنوب وحدثت اشتباكات تغلب فيها المسلمون فى عهد ولاية عبد الله بن أبى السرح حيث تقول الروايات أن المسلمين وصلو عاصمتهم دنقلا ورموها بالمنجنيق حتى طلب ملكها الصلح فى سنة ٦٥٢م . وأملى المسلمون شروطاً على الملك تتلخص فى تسهيل تبادل التجارة وفى حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون فى دنقلا العاصمة وفى دفع بقط مقداره ثلاثمائة وستين رأسا من الرقيق . وكل

ماكان يطلبه المسلمون أنذاك حسب مايبدو هو أن يسمح للمسلمين باجتياز إقليم دنقلا فى غدوهم ورواحهم للتجارة وفى ممارسة شعائرهم الدينية فى المسجد الذى أبتنوه وجعلوا من بلاد النوبة دار معاهدة لا دار حرب ولا دار إسلام وعلى ما يبدوا فقد رأى المسلمون فقر البلاد وصعوبة مواصلاتها فزهدوا فى ضمها للأملاك الإسلامية واكتفوا بالمعاهدة . وظلت هذه المعاهدة سارية المفعول تتحكم فى العلاقات بين البلدين نحو ستة قرون ·

ويقيم البجة فى أرض السودان فى الصحراء ما بين النيل والبحر الأحمر وتذكر المصادر هجوما قام به البجة فى سنة ٧١٥ م على صعيد مصر وردهم المسلمون وتصالح الفريقان على أن يدفع البجة سنويا ثلاثمائة من الإبل الصغيرة وسمح بالعلاقات التجارية وبان يجتاز المسلمون أرض البجة وأن يجتاز البجة أرض المسلمين . غير أننا نسمع عن تجديد البجة لغاراتهم فى عهد الخليفة المأمون العباسى حيث أمر بتجريد حملة كبيرة بقيادة عبد الله ابن الجهم فى سنة ٨٤١ ونتيجة هذه الحملة إملاء شروط عليهم جعلت بلاد البجة ملكا للخليفة وأن يكونوا عبيداً لأمير المؤمنين وأن يؤدوا خراجا سنويا من الإبل والنقود وأن يحترموا الإسلام وألا يعينوا أحداً على المسلمين وأن يسمح لعمال أمير المؤمنين بالدخول فى أرض البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة . ويتضح من هذا أن العرب المسلمين وجدوا طريقهم لأرض البجة قبل ذلك إما لغرض التجارة أو جذبتهم معادن الذهب أو المراعى · وهناك من العرب من عبروا البحر الأحمر من الجزيرة العربية رأسا . وفر بعض الأمويين ومن كانوا يناصرونهم حين أنهارت دولتهم جنوبا من مصر فى بلاد البجة وحملة ابن الجهم رافقها عدد كبير من العرب فضل بعضهم الإقامة ونزحت قبائل عربية أخرى من مصر تحت ضغط قبائل أخرى . كل هذه جعلت من إقليم البجة

مجالا حيويا للعرب وبالتالى للمسلمين وتم الاختلاط والزواج ودخول البجة فى الدين الإسلامى .

ومع ذلك فالبجة ظلوا يجددون التمرد على شروط المأمون القاسية . فنى عهد المتوكل العباسى أغاروا على مناجم الذهب بالعلافى وندب لهم عبد الله القمى سنة ٨٥٤ م لمحاربتهم فى جيش كبير تبعته قبائل عربية . وتم لهذه الحملة التغلب على البجة ووافق على بابا زعيمهم على ما أملى عليه من شروط وأرغم على أن يطا بساط الخليفة فى سر من رأى عاصمة العباسيين أنذاك . فأكرم الخليفة وفادته . وتدفق مزيد من العرب على المعادن وسيطروا على استغلالها وزادت مصاهرتهم للبجة وزاد من اعتنقوا الإسلام من أهل البلاد . ومما زاد فى نزوج العرب من مصر نحو الصحراء الشرقية ومواطن البجة سياسة الخليفة المعتصم عندما حصر جيشه فى الترك وأمر واليه على مصر بالاستغناء عن خدمات العرب . وثار العرب وأخمدت ثوراتهم بعنف وتعرضوا للاضطهاد وفضل بعضهم الهجرة إلى الصحراء وأرض البجة وأرهقوا بالضرائب مما زاد فى نفورهم من الهيئة الحاكمة غير العربية .

وشهد عهد أحمد بن طرلون حملة كبيرة إلى النوبة والبجة بقيادة العمرى باشتراك قبائل عربية وخاصة ربيعة وجهينة وسار فى سنة ٨٦٨ م حتى إقليم المناصير واهتدى إلى مواضع جديدة للتبر فى الصحراء ، حملت إليه المياه من النيل وحارب ملك النوبة فى دنقلا ثم نهض لمحاربة بعض القبائل فى منطقة أدندان وتضخم نفوذ العمرى بعد ذلك حتى امتد إلى عيذاب فى البحر الأحمر وأصبح خطرا على ابن طولون نفسه . وعندها أرسل ابن طولون جيشا من القاهرة لمحاربته ولم يضعف نفوذ العمرى حتى بعد أن انشقت عليه قبيلة ربيعة ولكن نهايته كانت على يد شخص من قبيلة مضر أغتاله :

وتمرد النوبيون أكثر من مرة على الأخشيديين وخاصة فى أخريات أيامهم ورنت الدولة الفاطمية بأبصارها حيث دخل جوهر الصقلى وعلم بتلك الغارات من النوبيين بعث بأحمد بن سليم الأسوانى لملك النوبة جورج يطالبه بدفع ما عليه من بقط للدولة الإسلامية فى مصر . وحين تبين لجورج قوة تلك الدولة الجديدة خضع للأمر وأدى ما عليه . وهنالك رواية تقول بأن جوهرا دعا جورج لاعتناق الدين الإسلامى وهذه رواية محتملة الوقوع لأن الفاطميين عرفوا بسياسة التبشير الإسلامى على أساس المذهب الشيعى .

ويروى ابن سليم أن المسلمين فى بلاد النوبة كانوا فى حالة من الاستقرار والاستقلال وكانت لهم أملاك يستغلونها لصالحهم . وروى كثيراً من النوبيين اعتنقوا الإسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم باللغة العربية ، ونعتقد أن العرب أنفسهم تعلموا لغة النوبة . ويزيد ابن سليم أن المسلمين توغلوا داخل الأراضى السودانية حتى إقليم مملكة علوة لغرض التجارة حتى أنه أصبح لهم رباط خاص فى سوبا العاصمة به جماعة من المسلمين وكان عهد الفاطميين عهد ود ومصالحة مع النوبة على وجه العموم .

حدثت تجمعات من القبائل العربية حول أسوان وفى الصحراء الممتدة إلى البحر الأحمر ، وارتبط العرب بالنوبيين عن طريق الزواج ، وكما قدمنا اعتنق النوبة الإسلام وزال الملك المسيحى من النوبة السفلى فى وقت مبكر نسبيا ، واستعان الحاكم بأمر الله الفاطمى بأمير من ربيعة فى مطاردة الثائر أبى ركوة وتمكن الأمير من القضاء عليه فى بلاد النوبة ، ومكافأة له أضفى عليه الحاكم لقب كنز الدولة وتسمت قبيلة بأكملها باسمه وصارت لهذه العائلة سيادة فى النوبة السفلى ثم فى دنقلا فيما بعد حينما أصبحت إسلامية .

وسياسة المعتصم العباسى فى استخدام العناصر التركية بديلا من النوبة

فى الجندية جعلت ابن طولون فى مصر ينتهج هذه السياسة أيضاً حيث جند من النوبيين سواء عن طريق التطوع والإغراء أو عن طريق الشراء من الأراضى الوسطى والجنوبية فى السودان وبلغ عددهم فى بعض الروايات أربعين ألفا أسكنوا فى حى يعرف باسمهم ، وسارت دولة الأخشيديين على هذا النهج فى استخدامهم خاصة فى عهد كافور . ودولة الفاطميين أيضا زادت فى عدد من استخدمتهم بتشجيع من أم المستنصر وهى سودانية الأصل ، وحسب الروايات بلغوا فى ذلك العهد ٥٠ ألفا . وكانوا قوة يؤبه لها فى إخماد الثورات وفى التكتلات الحزبية داخل الجهاز الحاكم .

ولم يقتصر نزوح النوبيين إلى مصر على الخدمة العسكرية ، بل ذهب الكثير منهم للعمل كما هى الحالة عليه الآن بل برز من أبنائهم الذين ولدوا فى مصر يزيد بن أبى حبيب حيث تعمق فى العلوم الإسلامية واتصل بعدد من صحابة الرسول الذين شهدوا فتح مصر واتصل أيضا بتابعيهم . وكان والده من سبى النوبة فى الحملة الإسلامية الثانية على تلك البلاد . واشتهر أيضا أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم الملقب بذى النون المصرى ودرس الموطأ عن بعض أصحاب مالك بن أنس عندما خرج حاجا وعرف بعد رجوعه لمصر بميله لحياة التصوف وساح فى البلاد الإسلامية . ولا بد أن الكثير ممن استخدم فى مصر من النوبيين رجع لبلاده وحمل إليهم الثقافة الإسلامية وأثر عليهم حتى اعتنقوا الإسلام .

كانت علاقة صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية سيئة مع الجنود السودانيين لأنهم حاولوا اقصاءه من الوزارة فى عهد الخليفة العاضد الفاطمى وفشلت محاولتهم لأنه قاومهم بحملة قادها شجاع الدين البعلبكى سنة ١١٧٣ م ودارت المعارك بين الفريقين فى شوارع القاهرة وانهزم الجند السودانى إلى الصعيد . أما كنز الدولة فوالى صلاح الدين فى حربه

مع الجند السودانى إلا أن صلاح الدين كان يتهم بنى الكنز بتشيعهم للعلوية ، ومعنى هذا أنهم روحيا ما زالوا مع الفاطميين . وأرسل جيشا لبلاد النوبة من ضمن أهدافه القضاء على نفوذ بنى الكنز . وتوغل حتى ابريم ولكن فقر البلاد جعله يكتفى بهذا المقدار من التوغل واكتفى صلاح الدين باقطاع ذلك الإقليم لأحد أمرائه . وفى هذا دلالة واضحة بأنه لا بود لكنز الدولة السيطرة عليه . ثار كنز الدولة وهاجم والى صلاح الدين وقتله . وفى نفس الوقت ظهرت حركة فى مصر ترمى لإعادة النفوذ الفاطمى ويعتقد أن كنز الدولة على صلة بقيادة هذه الحركة . ولكن صلاح الدين تغلب على المقاومتين ورحل بنو الكنز من أسوان ونقلوا مركز إمارتهم نهائيا إلى بلاد النوبة حيث تم اندماجهم مع العنصر النوبى .

وقبل أن نستأنف تطور الحوادث فى عهد المماليك يجدر بنا أن نقف قليلا لنرى مدى التغيير الذى حدث فى بلاد السودان نتيجة الفتح الإسلامى لمصر ، بسيطرة المسلمين على مصر وهنت الصلات الروحية التى كانت تربط مصر بالسودان لأن إرسال مطارنة وقساوسة ورهبان من مصر للسودان أصبح من الصعوبة بمكان . وبدأت أفواج القبائل العربية تتوافد على وادى النيل وعلى الصحراء الشرقيـة ، ومما زاد فى تدفقها بريق الذهب ووفرة المراعى وفرار العرب عندما سيطرت عناصر غير عربية على مصر . ثم ان النوبيين نزحوا لمصر للخدمة فى الجيش وفى مجـالات العمل الأخرى . ورجع بعضهم إلى موطنه متأثراً بالحضارة العربية الإسلامية واختلط العرب بسكان البلاد الأصليين ونتيجة هذا التفاعل هو تضخم عدد السكان نسبيا ودخولهم فى الدين الإسلامى . ومع كل هذه المؤثرات الخارجية فإن مملكة النوبة فى دنقلا لم تخضع خضوعا تاما والمقاومة التى أبديت فى عهد المماليك كما سيجىء تظهر بوضوح تام أن هناك قوة كبيرة لم ترض بالتغيير روحيا وحضاريا .

وأول اشتباك دونته لنا المصادر فى عهد المماليك كان فى سنة ١٢٧٢ م حيث أغار النوبيون على ثغر عيذاب بالبحر الأحمر ونهبوا متاجرها وقتلوا عدداً من أهلها بما فيهم القاضى والوالى ثم على مدينة أسوان فخربوا السواقى وأسروا عددا من السكان وسخروهم فى بناء كنيسة فى دنقلا . ويتضح من هذا أن النوبيين لم يكتفوا بالامتناع من دفع البقط فقط بل أغاروا على ديار المسلمين وخربوا ونهبوا وأسروا . وما كان للسلطان بيبرس إلا وأن يبعث بحملة يقودها واليه على قوص . وكالعادة تقدمت الحملة حتى وصلت دنقلا . وما كان لداود الملك إلا وأن يتقهقر جنوبا وعاد المسلمون بالأسرى إلى مصر . ورجع داود إلى دنقلا بعد انسحاب جيش المماليك وعند سماع السلطان فى مصر برجوع داود جهز حملة أخرى ومعها شكندة ابن أخت داود الذى لجأ إلى مصر متظلما من خاله معتبرا له غاصبا للملك يستحقه هو . وخرج داود وأتباعه لملاقاتها خارج دنقلا ، غير أنه انهزم وفر كالعادة . وبذلك تم تتويج شكنده تحت حماية المماليك بشروط أملوها عليه . وتتلخص فى الطاعة والولاء المماليك وينوب عن السلطان فى حكم مملكة المقرة ويرسل نصف ما يجمعه من المملكة لمصر ومعه بعض التحف ويدفع كل نوبى بالغ جزية تبلغ الدينار طالما بقى على النصرانية . وأن يمنع شكندة الأعراب من الاستقرار فى بلاد النوبة . وحلف شكندة اليمين بالطريقة المسيحية على الوفاء بهذه الشروط .

وهذه الشروط تتضمن موادتسترعى الانتباه . منها أن المماليك اكتفوا بوضع من يثقون فيه من سلالة ملوك النوبة على عرش دولة المقرة دون أن يطالبوه باعتناق الدين الإسلامى . وكذلك لا يرغمون نوبيا على اعتناق الإسلام بل يطالبونه بدفع جزية فقط . ومنها أن يمنع استقرار العرب فى المملكة . ومن هذا يتضح أن المماليك كانوا يخشون تجمع الأعراب فى بلاد النوبة حتى لا يكونوا مصدر خطر على الدولة المملوكية كما فعلوا من

قبل حين تجمعوا فى أسوان وحواليها . وهـذا يفسر جزئيا اجتياز القبائل العربية النازحة للسودان لبلاد النوبة واستقرارها فى مملكة علوة فى السودان الأوسط لدرجة أنهم طغوا على السكان الأصليين ونشروا اللغة العربية وماتت اللغات الأصلية بينما بقيت فى كثير من أجزاء دولة المقرة اللغات الأصلية إلى يومنا هذا . والملاحظ أن اللغة العربية فى الوقت الحاضر لها السيطرة جنوبى دنقلا العجوز العاصمة القديمة حتى فى دولة المقرة نفسها . لأن الملوك منعوا القبائل العربية من الاستقرار فى العاصمة وإلى شماليها وإلى جنوبيها بقليل . ومن بقى منهم كانوا فى قلة جعلت النوبة تمتصهم وتجعلهم يتحدثون لغتهم . ولـكن الإسلام انتشر واعتنقته النوبة حتى مع تحدثهم بلغاتهم الأصلية .

وتوالت الحوادث على نمط واحد وهو تمرد بعض الملوك على هذه الشروط وتسيير الحملات من قبل المماليك تنتهى بإجلاس منافس تحت رعاية المماليك على العرش . وسرعان ما يظهر الملك المتمرد عندما تجلو جيوش المماليك عن المنطقة وتستعيد سلطانه وملـكه إلى أن كان الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادى حيث جلس أحد سلالة كنز الدولة على عرش المقرة فى دنقلا وكان مسلما وأصبحت المقرر رسمياً دولة إسلامية . ويبدو فى ذلك الحين أن الإسلام تغلب وأصبح النوبيون بمرور الزمن مسلمين مع من اختلط بهم من العرب وانصهر معهم ومع ذلك لم تتمكن اللغة العربية من جنوبى دنقلا العجوز بقليل إلى أسوان من القضاء على اللغات النوبية فى المنطقة . ولم تترك لنا مصادر المماليك بعد ذلك أخبارا تدل على تسيير حملات : والظاهر أنه بزاول المسيحية وبانتشار الإسلام اطمأن المماليك للمنطقة ولم يجدوا مبررا لجباية الجزية منهم طالما أنهم أصبحوا مسلمين .

وبزوال الملك التقليدى ذى الطقوس القديمة زالت هيبة الملك

وتحكمت النزعات القبلية أو الاقليمية فى المنطقة فبعد أن كان الملك موحدا مركزيا يسنده حكام فى الأقاليم يعينهم الملك استقلت كل منطقة عن الأخرى . إما على أساس إقليمى أو قبلى وحينما قامت دولة الفونج على انقاض مملكة علوة وامتد نفوذها إلى الشمال حتى شمالى أرقو لم نجد فى دنقلا دولة موحدة بل مملكات صغيرة منبثة فى المنطقة وقد وصف ابن خلدون بلاد النوبة حين دخلها العرب وصاهروا أهلها بما يلى : ثم انتشر أحياء العرب من جهينة فى بلاد النوبة وملكوها وملأوها عيثاً وفسادا وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا ثم صاروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم فى تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم : وبالرغم من أن هجرة القبائل العربية من مصر إلى السودان الأوسط ظلت متدفقة إلا أن إسلام دولة المقرة زاد فى تدفقهم ولم يستقر كثير منهم فى دنقلا لا لأنهم منعوا من الإقامة . بل لأن المجال الحيوى الرحب كان فى أجزاء مملكة علوة وفى كردفان .

أما مملكة علوة فلم تدخل فى نزاع مع المسلمين فى مصر كما فعلت المقرة إما لاتساع رقعة أراضيها وزهد المسلمين فيها أو لبعد الشقة بينها وبين مصر إذ كونت المقرة حاجزاً بين الفريقين وفى بعض الأحيان كان حكام الجزء الشمالى من مملكة علوة المعروف بمنطقة الأبواب (شندى وحواليها) موالين للمسلمين فى نضالهم مع ملوك مقرة . وتصف المصادر العربية مملكة علوة باتساع أراضيها ووفرة خيراتها عند مقارنتها بمملكة المقرة . وقد قدمنا أن ابن سليم الأسوانى فى أول عهد الفاطميين ذكر تغلغل المسلمين فيها وأن لهم رباط معمور بهم فى عاصمتها سوبة . والظاهر أن العرب فى هجرتهم إلى أراضى مملكة علوة الفسيحة لم يكن

همهم الملك أو السيطرة بل اكتفوا بالتجارة والبادية منهم انساحو فى البوادى وراء إبلهم وأغنامهم . ولم يعترضهم السكان الأصليون على ما يبدو لأن هناك متسعا للجميع . ولكن بانهيار دولة المقرة المسيحية وهنت صلات علوة بمصدر الهامها الدينى فى مصر ونتيجة لذلك أهملت الطقوس الدينية وهجرت الكنائس وتداعت لأن معظمها بنى من الطين .

ويتضح لنا تدهور الأحوال فى علوة من الموازنة بين الصورة التى رسمها لنا ابن سليم الأسوانى فى أوائل عهد الفاطميين فى مصر وبين صورة الفاريز البرتغالى قبيل أوائل عهد الفونج فى بداية القرن السادس عشر الميلادى . يقول ابن سليم كما دونه المقريزى عن سوبا عاصمتهم التى تقع شرق الجزيرة الكبرى بين البحرين ما يلى : وفيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين . ومتملك علوة أكثر مالا من متملك المقرة وأعظم جيشا وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى وبلده أخصب وأوسع والنخل والكرم عندهم يسير وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التى مثل الأرز منها خبزهم ومزيرهم[1] واللحم عندهم كثير لكثرة المواشى والمروج الواسعة حتى أنه لا يوصل إلى الجبل (الصحراء) إلا فى أيام وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب ودينهم النصرانية يعاقبة وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة وكتبهم بالرومية يفسرونها بلسانهم وهم أقل فهما من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه . يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش فليكن أمره ، وهو يتتوج بالذهب والذهب كثير فى بلده » . ووصف ابن سليم أن بعضهم يعترف بوحدانية الله الخالق أو يعبد الشمس والنار . ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة .

(١) المزير نبيذ الذرة .

أما فرنسسكو الفاريز فهو يكتب ما ترامى إليه من أخبار علوة عندما كان البرتغاليون فى المحيط الهندى والبحر الأحمر يقول :

« إن أولئك النوبيين يجهلون دينهم فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين أو اليهود ويقال إنهم كانوا على النصرانية غير أنهم فقدوا دينهم ولم تبق لهم عقيدة . وهم يعيشون بأمل أنهم مسيحيون » وقد بعثوا حسب الرواية إلى نجاشى الحبشة سنة ١٥٢٢ م ليرسل لهم قساوسة يرشدونهم إلى دينهم ولم يتمكن النجاشى من تلبية هذا الطلب لأنه يعتمد على بطريرك يصله من بلاد المسلمين (مصر) وأضاف الفاريز رواية سمعها من بعض الأحباش أنه منذ وفاة أسقف علوة من زمن بعيد لم يجدوا من يخلفه بسبب الحروب بين القبائل العربية فى النوبة الشمالية وبذلك تركت كنائسهم بدون رعاية ونسوا نتيجة لذلك كثيرا من المبادىء المسيحية .

ومما تقدم من سرد سريع مقتضب لحالة السودان خاصة بعد الفتح الإسلامى لمصر تبدو لنا الظواهر الآتية :

١ — امتدت الحضارة المصرية القديمة إلى السودان الشمالى منذ الأسرات الأولى لضرورة التجارة والتعدين أولا . ثم تطورت إلى احتلال ثم تمصير كامل حتى أن ملوك كوش تقدموا شمالا لضم الإقليمين وطرد الليبيين بصفتهم حماة للحضارة المصرية التى هى حضارتهم فى الوقت نفسه . وعندما تقهقروا لمواطنهم فى السودان تحت ضغط الآشوريين انتقلت مراكزهم بالتدريج إلى الجنوب حيث تكونت حضارة مروى القديمة فى منطقة شندى الحالية وما حولها وتطعمت بعناصر حضارية أخرى إفريقية وبدورها أثرت فى الحضارات الإفريقية حتى قضى عليها إزانا ملك أكسوم .

٢ — حينما احتل المسلمون العرب مصر شرعوا فى تأمين طريق

التجارة إلى الجنوب . وهذا قادهم إلى اشتباك مع مملكة المقرة المسيحية في دنقلا انتهى بشروط ارتضاها المسلمون ضمنت لهم التجارة وممارسة المسلمين لشعائرهم الدينية وتأدية بقط خاص من رقيق سنويا وكذلك تصالحوا مع البجة في الصحراء الشرقية بشروط مماثلة ، ولم يشأ المسلمون ضم الأراضي السودانية لدار الإسلام ربما لفقرها وطقسها وصعوبة مواصلاتها . وقد بحث الفرس ثم الرومان أمر ضمها لإمبراطورياتهم ولكنهم امتنعوا لمثل هذه الأسباب . فإذا كان هذا مسلك الطبقات الحاكمة من زهد في تلك الأراضي المقفرة الوعرة إلا أن العرب وخاصة في باديتهم رأوا في السودان مجالا حيويا رحبا لأن طبيعة الأراضي تشابه جزيرتهم العربية عبر البحر الأحمر . والصحراء للعرب مثل البحار لليونان . فهم عرفوا مسالكها ومياهها ومراعيها وهي لهم الحرية بمعناها الحقيقي إذ لا سيطرة عليهم من ملك أو حاكم ، وخاصة عندما توالت على حكم مصر عناصر غير عربية عاملتهم بقسوة واضطهدتهم

٣ — لم يقم العرب الذين انساحوا في الأرضي السودانية سواء في مملكة المقرة أو علوة أو أراضي البجة بحملات تبشيرية إسلامية بل اكتفوا بمساكنة السكان الأصليين كل على دينه وانتشر الإسلام تدريجيا بين سكان البلاد الأصليين باختلاطهم مع العرب ومصاهرتهم لهم بل إن العرب لم يطالبوا حسب الروايات التي وصلت إلينا بحكم ذاتي أو مملكة خاصة ولكن كانت لهم أحياؤهم الخاصة في المدن الكبيرة ولهم قراهم الخاصة والدلائل واضحة على أنهم في بعض المناطق خضعوا لحكام البلاد وقد ذكر أن المسلمين الذين امتلكوا أراضي في بلاد النوبة السفلى جنوبي أسوان كانوا يدفعون الضريبة لحكام البلاد من النوبيين ولو كانت هناك حملات تبشيرية إسلامية منظمة مسلحة أو حتى سلمية لذكرها الفاريز البرتغالي عندما تحدث عن ضعف العقيدة المسيحية بين النوبة لأنه لم يذكر من ضمن أسبابها الاضطهاد الديني أو التبشير

الإسلامى وحتى سنة ١٥٢٢ م وبعد قيام دولة الفونج حاول بعض سكان علوة الذين لم يغيروا دينهم حضور مطران من الحبشة لإرشادهم .

وبذلك تم للعرب التغلغل التدريجى على مدى القرون فى بلاد السودان بعد دخول المسلمين مصر واختلطوا بالبجة والنوبة وفقد النوبة والبجة دياناتهم تدريجياً واعتنقوا الدين الاسلامى ولكن جهاز الحكم فى إقليم علوة ما زال بيد سكان البلاد الأصليين وانقسمت دولة المقرة إلى دويلات مستقلة وزال عنها الحكم الموحد . هذا هو مجمل الحالة فى السودان عندما قامت دولة الفونج فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وحاولت توحيد وادى النيل إلى أرض المحس فى بلاد النوبة فى دولة إسلامية عربية .

عمارة دو نقس مؤسس دولة الفونج (!)

ذكرنا فى المحاضره الأولى ما آلت إليه الحالة فى مملكة المقرة حوالى سنة ١٣١٣ حيث تربع على العرش فى دنقلا أول ملك مسلم ولم تدون لنا مصادر المماليك بعدها أية حروب قامت بينهم وبين النوبة ، وانتهى ذلك الملك الموحد وانقسمت المنطقة إلى مملكات صغيرة . وكنا عن طريق الأخبار التى تروى عن علاقات المماليك بدولة المقرة نسمع شيئاً عن أخبار علوة وخاصة الجزء الشمالى منها المعروف بمنطقة الأبواب . أما الآن فالغموض يكتنف أحوال علوة ، وفجأة نسمع من الروايات المحلية التى دونت فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى. تحالف عمارة دونقس زعيم الفونج وعبد الله القريناتى القاسمى وقاتلا ملك علوة وتغلبا عليه . ظهرت دولة الفونج فجأة حسب هذه الروايات دون أن نلم بتطور الأحداث التى أدت إلى هذا التغيير. وهذا ما أدى بنا إلى أن نعتبر ضعف ووهن علوة المسيحية وتكاثر العرب وانسياحهم فى بلاد علوة ثم مصاهرتهم للسكان واعتناق أهل البلاد الأصليين للدين الإسلامى أسبابا أدت إلى هذا الانقلاب على مر الزمن .

ومصادرنا عن تأسيس دولة الفونج بزعامة عمارة دو نقس هى روايات محلية دونت فى أوائل القرن التاسع عشر ورحلة داود روبينى من يهود اليمن دخل السودان فى أيام عمارة ورافقه فى رحلاته مدة عشرة أشهر . وما علينا والحالة هذه إلا أن ندرس هذه الوثائق بإمعان ونستخلص منها الحقائق سواء كانت ظاهرة أو عن طريق الاستنتاج أو الترجيح . أولها كتاب « الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان » ومشهور بكتاب « طبقات ود ضيف الله » ومؤلف الكتاب الفقية محمد نورود ضيف الله بن محمد بن ضيف الله الجعلى الفضلى . بقى الكتاب مخطوطا إلى أن نشر فى طبعتين سنة ١٩٣٣ م قام بهما السيد سليمان

داود منديل والشيخ إبراهيم صديق . ولا زال هناك مجال لطبعة محققة تحقيقا عمليا وشرح وتعليق لما ورد فى الكتاب من أخبار. والكتاب كما هو ظاهر من عنوانه يختص بأخبار الأولياء والصالحين والعلماء ، ولكنه يتعرض من وقت لآخر لأخبار الملوك وهذا هو النص الذى يورده ود ضيف الله عن قيام مملكة الفونج « اعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها أول القرن العاشر سنة عشر بعد التسعمائة وخطت مدينة سنار خطها الملك عمارة دونقس وخطت مدينة أربجى قبلها بثلاثين سنة خطها حجازى بن معين ولم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . ويقال إن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهارها من غير عدة حتى قدم الشيخ محمود العركى من مصر وعلم الناس العدة وسكن البحر الأبيض وبنى له قصراً يعرف الآن بقصر محمود » . يحدد ود ضيف الله السنة التى تغلب فيها الفونج على أرض النوبة ويوضح أن مدينة أربجى خطت قبل سنار وحسب تفسير الأستاذ محمد متولى بدر فى كتابه « اللغة النوبية » فإن أربجى معناها بالنوبية بلد العرب وهذا يؤيد أن تأسيسها حدث فى عهد كان سكان البلاد وهم يتحدثون بلهجتهم شاهدوا مدينة تجارية قامت على النيل الأزرق بالقرب من الحصاحيصة الحالية وسموها بلد العرب . ولكن نسبة تأسيسها لحجازى بن معين وهو كما ورد فى أخباره نشأ فى عهد متأخر يدخل شكا وبلبلة ولكننى أرجح تأسيسها إلى ما قبل قيام دولة الفونج .

ولكن أهم خبر فى هذا النص أن المسلمين فى بلاد علوة حين قيام دولة الفونج كانوا يجهلون بعض أمور دينهم بدليل أن المرأة تتزوج بعد طلاقها مباشرة قبل وفاء العدة وهذا محتمل الوقوع لأنهم معظمهم وخاصة الذين انساحوا فى إقليم علوة عرب بادية وليس من بينهم علماء دين ، وما كانوا يتلقون الإرشاد الروحى فى مصر . وهم فى هذه الحالة لا يختلفون عن النوبة المسيحيين الذين شاركوهم الديار حيث انقطع إرشادهم من

الكنيسة القبطية فى مصر منذ أمد . فإذا انطبق هذا على العرب الوافدين فلابد أن ينطبق على النوبة الذين أسلموا . أما قدوم محمود العركى فلم يتبين لنا إن كان قدومه قبل تأسيس دولة الفونج أو بعدها . والغريب أننا لم نسمع عن هجرة بعض العلماء فى منطقة دنقلا إلى بلاد علوة لإرشاد المسلمين فيها وهى قد أصبحت دولة إسلامية قبل الفونج بنحو مائتى سنة .

والمخطوطة الثانية من تأليف الشيخ أحمد كاتب الشونة وهو من سكان الجزيرة بالقرب من المسلمية واشتغل كاتبا لشونة الغلال بالخرطوم إلى سنة **١٨٣٤** م وختم كتابه بعد ذلك بأربع سنوات وهو فى قريته بعيدا من مجرى الحوادث فى الخرطوم . والكتاب يتناول تاريخ سلطنة سنار منذ قيامها إلى ما بعد العهد التركى ــ المصرى فى سنة **١٨٣٨** م . وتناول بعضهم المخطوطة بالتنقيح والحذف والإضافة حتى وصلت الأخيرة منها إلى عهد ممتاز باشا مدير قبلى السودان . قام بنشر نسخة من المخطوطة المعدلة مكى شبيكة وقام بنشر النسخة الأصلية الأستاذ الشاطر بصيلى عبد الجليل .

وهذا ما ذكره الشيخ أحمد كاتب الشونة فى مخطوطته الأصلية : « أما بعد فإنى رأيت تواريخ للأقدمين فى عدد سنى الملوك السابقين وأحببت أن أجمع إلى ذلك شيئا من ابتداء عمارة سنار المحروسة المحمية أجلها الله خالق البرية وأذكر ما كان فيها ومن ملوكها وسيرهم المحمودة المرضية على ما سمعته الأذن وشوهد فى آخر ملكهم بالأعين » . فى هذا النص يوضح الشيخ أحمد منهجه فى البحث ومصادره . فهو قد رأى كشفا بملوك الفونج وعدد السنين التى ملكها كل منهم وزاد على ذلك بعض الروايات التى سمعها متداولة بين الناس وفى أخريات أيامهم شاهد هو بنفسه بعض الأحداث . وسياق قصته فى المخطوطة يؤيد هذا المنهج لأنه أورد سلسلة الملوك جميعهم والسنين التى تولوا فيها العرش . ويذكر نتفا قليلة جدا عن الملوك الأوائل ، ويذكر حادثة أو حادثتين فى عهدهم

وفى بعضهم لا يذكر إلا سنة التولية وسنة انقضاء ملكهم ولكن عندما تقترب الحوادث من عهده تزدحم بالروايات المفصلة المملة أحيانا .

ويستطرد الشيخ أحمد ويقول : « ان الفونج ملكت بلاد النوبة وتغلبت فيها فى أول القرن العاشر بعد التسعمائة وخطت مدينة سنار خطها[1] عمارة دونقس وهو أولهم وخطت مدينة أربجى قبلها بثلاثين سنة خطها حجازى بن معين . وعلى هذا يتضح أن عمارة سنار فى مدة الفونج » ويذكر الشيخ أحمد بعد ذلك ما قاله ود ضيف الله عن جهل المسلمين بأمور دينهم إلى أن قدم الشيخ محمود العركى . وهذا النص ما هو إلا تكرار لما ورد فى الطبقات ويكرر نفس البلبلة عن حجازى بن معين وأربجى . فبينما هو مؤسس أربجى قبل سنار بثلاثين سنة نجده فى الطبقات أحد تلاميذ الشيخ تاج الدين البهارى وأنه بانى أربجى ومسجدها . والفرق بين التاريخين نحو مائة سنة . والروايات السماعية غالباً لا تهتم بالترتيب التاريخى والشيخ أحمد يذكر فى بداية مخطوطته أنه يروى الحوادث « على حسب ما عرض على المسامع من غير ترتيب لأنى لم أره مرتبا بل حكايات واردة ولم تخل من التقديم والتأخير والتبديل والتغيير » وأنا أرجح أن هناك شخصيتين بهذا الاسم أولهما الذى بنى أربجى قبل تأسيس سنار وثانيهما أحد أحفاده فى العهد المتأخر وهو تلميذ الشيخ تاج الدين البهارى . أما العنج فهو لفظ يطلقه السكان فى السودان على المجتمع الذى كان قائما قبل تأسيس دولة الفونج على حوض النيل وكردفان وورد فى مخطوطة قلاوون الأبج . ولم يهتد باحث إلى أصل اللفظ إلى الآن . ولعل دراسة اللغة التى كانت سائدة آنذاك فى مملكة علوة والتى انقرضت الآن توضح لنا الفرق بين لفظى عنج وفنج فربما تدلنا على أن الأولى تطلق على السكان الأصليين والثانية على الأعراب الوافدين .

---

(١) بناها الملك .

يستطرد الشيخ أحمد عن نشأة دولة الفونج ويقول : « فأول ملكهم مما تداول فى ألسنة الخلق أن ابتداء أمر الفونج كانوا بمحل يعرف بلولو بتفخيم اللامين فكانوا بها على قدر ما أراد الله إقامتهم به . ثم انتقلوا إلى جبل مويه وهو جبل معروف وأقاموا به . فلما أراد الله إظهار أمره وتسليطهم على خلقه وكان لهم بقر ولهم فيها ثور فحل فجعل هذا الثور يسرى بالليل إلى غابة سنار ولم يكن بها عمارة غير أنه يذكر أن بها جارية تسمى سنار مقيمة على جرف وبها سميت المدينة حين عمارتها . ثم أن الثور يتدلى يرعى فى تلك الغابة ليلا ويأتى فى ليلته . فتبعوه فى بعض الأيام فرأوا دارها ونهرها فنزلوا من مويه وقطع أشجارها عمارة دونقس وهو أولهم وصار ملكهم بها بعد أن قاتل العنج مع عبد الله القريناتى القاسمى أبى عجيب الكافوته ورجع إليها . وبقى ملكه فيها وشيخ عبدالله المذكور فى قرى وصار الملك له ولذريته المذكورين بعده أربعين سنة . فغاية ملكه إلى سنة أربعين بعد التسعمائة » .

لم يبين لنا الشيخ أحمد موقع لولو . وهذا أثار جدلا بين الباحثين كما سيجىء فى حينه . وسنار سميت على جارية كانت تقيم هناك ولكن الأستاذ محمد متولى بدر يقول : أن أصلها باللغة النوبية ا س ن آ ر ت ومعناها جزيرة الماء أو الأخت . وعن العلاقة بين عمارة مؤسس دولة الفونج وعبد الله مؤسس مشيخة العبدلاب يذكر أن عمارة قاتل العنج مع عبد الله ولا يتضح لنا إن كان زمام المبادأة فى هذا القتال كان بيد عمارة أم عبد الله ولكن سياق الجملة يدل على أن عمارة ساعد عبد الله فى قتال العنج والمقصود بهم فى تلك المنطقة أنهم مملكة علوة وعاصمتها سوبا ويوصف عبدالله بالقريناتى القاسمى وحسب ما نعرفه عن طريقة السودانيين فى النسبة للبلاد والقبيلة فقرينات قد تكون بلدته والقواسمة قد تكون قبيلته وكلاهما مجهولان لدينا . اشتهر نسل عبد الله فيما بعد بالعبدلاب أو أولاد عجيب وعجيب هذا هو الذى خلف أبناء فى المشيخة واشتهر أكثر منه . ومن لفظة شيخ

يستدل أن عمارة هو صاحب الأمر والنهى وعين عبد الله للجزء الشمالى من المملكة . أما قرى فلم يتضح لنا أن كانت مدينة قائمة آنذاك أم اختطها عبد الله وحسب اللغة النوبية فإن معناها شؤم .

ورواية مخطوطة الشيخ أحمد المعدلة والتى اشترك فى تنقيحها الشيخ الزبير ود ضوة والشيخ إبراهيم عبد الدافع تبدأ قصة الفونج من جبل مويه حيث تجمع بعض الناس حول عمارة دونقس وحضر عنده عبد الله جماعة من عربان القواسمة وتمت الكلمة على محاربة العنج ملوك سوبة . فتوجه الاثنان بجيوشهما وحاربا ملوك سوبة وملوك الغرب وانتصرا واتفقا على أن يكون « عمارة ملكا عوضا عن ملك علوه التى هى سوبا لكونه هو الكبير وأن عبد الله جماع يكون فى مكان ملك الغرب فتوجه واختط مدينة قرى الكائنة عند جبل الرويان بالشرق وجعلها كرسى ملكه وكذلك عمارة اختط مدينة سنار وكان قبله مقيمة بها امرأة تسمى سنار وجعلها كرسى ملكه وذلك فى سنة ٩١٠ هـ وما زال عمارة وعبد الله كالأخوين إلا أن رتبة عمارة أعلى وأعظم من رتبة عبد الله إذا اجتمعا فى مكان وأما إن غاب عمارة فيعامل عبد الله كما يعامل عمارة ولم تزل العادة جارية فى ذراريهم إلى انقضاء ملكهم » .

ومن هذا النص يتضح لنا أن عبد الله هو الذى حضر إلى عمارة وأغراه بالاتفاق على محاربة العنج ولعل عبد الله كان يسكن إلى الشمال حيث عرف الوهن والضعف الذى سرى فى جسم مملكة علوة وسهولة القضاء عليها بعد أن احتل المنطقة عديد من القبائل العربية وبعد أن دخل عدد كبير من سكانها الأصليين فى الدين الإسلامى . ويدل أيضا على أن عمارة حين حضر عنده عبد الله كان ملكا على دولة تم تأسيسها ومارست سلطتها على أراضيها منفردة وهذا ما يوضح سيادة عمارة والفونج فى التنظيم الجديد . ولعل الشيخ إبراهيم عبد الدافع وهو الذى أجرى التعديل على

المخطوطة حسب ما يظن رفع من شأن العبد لاب وهو يسكن منطقتهم في حلفاية الملوك تحت تأثير رواياتهم . ولذلك فسر ارتفاع مرتبة عمارة على عبد الله لأنه أكبر سناً إذا فسرنا لفظة الكبير بأنه يعني السن . ويؤكد النص أن قرى اختطها عبد الله ولم تكن قائمة قبله . وعندما يذكر علوه أو سوبة نفهم ما يقصد ولكن إشارته لملك الغرب يدخلنا في بلبلة ولا يتبين لنا ما يقصد . وهذه المنطقة الشمالية من علوة عرفت بمنطقة الأبواب في النصوص العربية وجرى ذكرها حتى في أزمان متأخرة أما عن ملك الغرب فهذا ما لم يتضح لنا ولعلها غلطة في الكتابة سرت في جميع النسخ .

أما العبد لاب أنفسهم فيروون قصة وردت في مخطوطة لهم يعزون كل شيء إلى الشيخ عبد الله جماع حيث تقول : « أولهم الشيخ عبد الله جماع كان ملكا على جميع القبائل التي بالسودان قاطبة وهو السبب في تأسيس مملكة العبد لاب لأنه كان رجلا ذا عزم ورأي سديد وكانت بلاد السودان قبلهم ملوكها العنج ولما دخلت قبائل العرب في تلك البلاد وكانت معهم قوة شديدة من خيول وأسلحة حادة ودروع . ولما رأى الشيخ عبد الله الأحكام الهمجية والظلم من ملوك العنج جمع كافة رءوس القبائل إليه وموافقتهم له على هذا الأمر وبايعوه على ذلك واجتهدوا في جمع الجيوش وبعد زمن قليل جمعوا جيوشاً كثيرة وتحاربوا مع ملك العنج محاربة كثيرة حتى قتل ملك العنج المسمى علوة واستولى على ملك قرى الشيخ عبد الله جماع » ذكرت هذا النص لأستكمل النصوص فقط ولا تعليق لي عليه لأنه لا يساعدنا مطلقا في محاولتنا تلمس قيام دولة الفونج وعلى ما يبدو فإنه كتب في عهد الحكم الثنائي لما يكل أو أحد الإنجليز الذين كانوا يبحثون في أصول القبائل السودانية .

أما داود روبيني فهو يهودي يدعى أنه أرسل في بعثة خاصة من أخيه الملك يوسف الذي كان يحكم مجموعة من اليهود في الجزيرة العربية شمالي

صنعاء وبعد أن مر على السودان وصل إيطاليا فى سنة ١٥٢٤ م وقابل البابا كليمنت السابع وذهب لبلاط ملك البرتغال وأوضح فى أوروبا أن رسالته من أخيه تتعلق بجمع الكلمة والاتحاد بين الدول المسيحية على عمل موحد ضد المسلمين الكفار. وحاول روبينى أن يستعين بالامبراطور شارل الخامس أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة بحملة تجهز له ضد الأتراك وكانوا سيطروا آنذاك على سواحل البحر الأحمر بعد دخول السلطان سليم العثمانى مصر سنة ١٥١٧م. وفى الوقت نفسه كون داود فى أوروبة حلفا مع ... ... Molcho Solomon الذى أجبر على اعتناق المسيحية ولكنه رجع إلى يهوديته وكانت له أحلام وأمانى رسالة تبشيرية يهودية، وقد استرعى الاثنان أنظار محاكم التفتيش فى أسبانيا وكانت قائمة آنذاك ضد اليهود بعد أن أجلى المسلمون عن أسبانيا. فحكمت على سولومون بالحرق سنة ١٥٣٢ م وعلى داود بالسجن فى أسبانيا حيث مات فيه سنة ١٥٣٥ م.

بعد هذه المقدمة عن داود روبينى بما رواه فى أوروبة عن رسالته وعما حدث له أخيراً يهمنا ما ذكره فى مخطوطته الفريدة فى مكتبة بودليان بأكسفورد واختفت بعد سنة ١٨٦٧ م ولكن بقيت منها صور. والمرجح أن روبينى أملاها عندما كان فى أوروبا بلغة ما على يهودى ألمانى كتبها بالعبرية. وإذا كانت مخطوطة روبينى فيها فجوات وفيها أسماء لأمكنة لم نتبينها بعد ومشوشة فى بعض أجزائها فإنها على وجه العموم وصفت لنا الحالة فى إقليم الفونج فى عهد مؤسس الدولة عمارة دونقس وبذلك يكون أول سائح أجنبى وصل لهذه الدولة عقب تأسيسها بل أول من دون فى حينه عن الفونج والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو أنه كيف تسنى لداود أن ينجح فى مراقبة عمارة دونقس نحو عشرة أشهر ويجد منه كل احترام وإكرام مع يهوديته. والإجابة نجدها فيما دونه روبينى

نفسه من أنه كان يصلي بالليل والنهار ويصوم النهار بكامله و بدهي أن يتحدث اللغة العربية بطلاقة حيث أنه من يهود اليمن .

يقول روبيني أنه وصل جده وظل مريضا فيها حينا من الوقت و بعدها سمع بسفينة على وشك الإبحار لبلاد كوش وبالرغم من أنه لم يعاف من مرضه فإنه طلب من ربان السفينة حجز مكانين له ولخادمه الأخرس الأبكم الذى يشرف على راحته فى السفر . وربما اختار روبيني هذا النوع من الخدم لضمان السرية . وبعد رحلة دامت ثلاثة أيام وصلا سواكن واستأجر له منزلا بالمدينة أقام فيه نحو شهرين . وعندما علم بقيام قافلة كبيرة من التجار قوامها ٣٠٠ جمل طلب من رئيسها عمر ابى كامل مرافقتها وأجيب إلى طلبه وذكر أن القافلة تقصد A S H A أو AS A فى بلاد كوش مملكة Sheba وعرف عمر أبو كامل بأنه شريف من سلالة النبي المنحدر من إسماعيل . وكان صائما فى رحلته هذه ومرت القافلة بصحارى وغابات ومراعى وأنهار وجبال لمدة شهرين إلى أن وصل هو بداية مملكة كوش حيث وجد الملك عمارة على ضفاف نهر هو نيل مصر . وهو أسود البشرة ويحكم البيض والسود ومملكته هى Sheba .

ثم يذكر أنه مر معه على أجزاء مملكته وأقام معه فى مدينة على رأس النيل اسمها — Lam,ul والمدة التى قضاها مع الملك تبلغ عشرة أشهر ويسهر على خدمته كل هذه المدة أبو كامل . ومن عادة الملك أن يظل متنقلا فى أجزاء مملكته باستمرار من منزلة لأخرى وصحبه روبيني فى كل هذه الجولات وكان فى خدمة (روبيني) ما يربو على ستين فارسا ممتطين صهوات جيادهم وهم من الأشراف عاملوه بكل احترام وعلى رأسهم أبو كامل . ومما زاد فى إجلال النـاس له أنه كان يصوم اليوم ويكثر من الصلاة ليلا ونهارا . وكان يذهب توا من مجلس الملك إلى منزله وهو راكوبة من الخشب والقش تبنى بالقرب من منازل الملك . ويتبع

الملك فى جولاته هذه عدد كبير من الأتباع والخدم منهم كبار ضباطه وموظفيه ومنهم حكام الأقاليم فى مملكته ومنهم القضاة . ويحكم على مرتكب الجريمة صغرت أو كبرت بالذبح وتنعقد المحكمة يوميا . ويمتلك الملك عديدا من الخيل والجمال الصهب ويتبعه عدد من الفرسان ويمتلك أيضا قطعانا من الماشية والأغنام وفى بلاده التبر الذى يستخرج منه الذهب .

وحين ينوى الرحيل من منزلة لأخرى يتقدم العمال لبناية منازل موقتة من الخشب والقش فى المنزلة التالية ويجهزون له كل ما يحتاجه مدة إقامته فيها وبعد رحيلهم تحرق هذه المنازل المؤقتة . ثم يصف طبيعة البلاد بأنها مخضرة وتكثر فيها الغابات والصحارى والجبال . وللملك عدد من الرقيق ذكور وإناث معظمهم عراة . ونساء الملك وجواريه يلبسن أسورة ومصاغا من الذهب . وحتى خدمه من النساء يلبسن بعض الذهب بل نسيجا منه يغطى وسطهن وبقية الجسم يظل عريانا . وينام هؤلاء الخدم فى العراء حتى عندما تمطر السماء . ويأكلون لحوم الأفيال والذئاب والفهود والكلاب والجمال والفيران والحيات وبعضهم يأكل لحم الآدميين . وحينما طلب الملك من روبينى ذات مرة أن يطلب ما يريد أجاب أنه لا يريد شيئا بل سمع عن ملكه العظيم وأحضر له هدية هى قميص من حرير ومبلغ ٧٠٠ ريال ويبارك الملك ويطلب له بركة النبى محمد ويغفر له سيئاته ويمنحه الدخول والاستقرار فى الجنة له ولذريته من بعده وكل من يمت له بصلة . ويرجو أن يذهب الملك لهم فى السنة القادمة إلى مكة مكان التوبة والغفران .

وحين أرسل الملك جوارى ليختار منهن زوجات قال إن نفسه راودته وأغرته بهن فى أول الأمر ولكن وازعا داخليا جعله يمتنع من مسهن وبذا تغلب على الشيطان حسب ما يروى وأهداهن للملكة : وبعدها رفعه

الملك لمرتبة عالية كما كان يفعل مع آل البيت من الأشراف القاطنين فى أرض كوش ومنهم رئيسهم أبو كامل الذى زاد فى قدره مودته مع روبينى فالملك وكل أتباعه وموظفيه يكنون كل حب وتقدير لروبينى كما لو كان ملاكا ويرهبونه لأنه يصوم النهار ويصلى ليلا ونهارا ويتحدث قليلا وإجابته كانت موجزة حين يسأل . ويرافقه كبار الموظفين والخدم بأمر الملك عندما يود الذهاب لأى مكان .

وبعد أن أقام عشرة أشهر مع الملك وهو فى هذه الحالة التى وصفها من تقدير وإجلال نتيجة إجادته التمثيل حضر شريف من مكة كما روى ومعه كتاب . وحاول هذا الشريف الوافد الدخول فى حلف مع أبى كامل وروبينى لاستغلال سذاجة الملك بقدر الإمكان واقتسام الأرباح . وقال إن هذا الكتاب الذى يحمله من مكة به مزايا دينية هامة ويود إهداءه للملك وشهد روبينى وأبو كامل على صحة مزايا الكتاب . ولأمر لم يتبين لنا لماذا اختلف روبينى مع هذا الشريف حيث صرح بأن روبينى يهودى إدعى الإسلام والشرف ؟ وبالرغم من أن الملك تقبل نكرانه لليهودية إلا أن الحرامى فى رأسه ريشة كما يقولون وبدأ يستعد للرحيل حتى لا يكشف أمره مرة ثانية ويصدق الملك التهمة . وسمح له الملك بالرحيل وأعطاه فرسين ودليلا يقوده لسنار مكان العبيد أمين خزينة الملك كما يظهر ومنها يجهز بسوبا مقر أبى كامل .

ويقص روبينى رحيله بأنه خرج من Lim,Ul مقر الملك على النيل ومر فى طريقه على أنهار ورأى الأفيال فى الطريق ومر بنهر من الطين انغرس فيه الفرس لبطنه وهلك عدد بهذه الطريقة ولكنه سلم عبر النهر على ظهر الفرس . وفى ثمانية أيام وصل لسنار ومنها اشترى ثلاثة جمال وقربتين لحمل الماء وعبدا يرافقه لأبى كامل فى سوبا . وصل سوبا فى خمسة أيام ووجدها أطلالا وخرائب ويسكن الناس فى منازل مؤقتة من الخشب والقش حواليها .

واستغرب أبو كامل أن يأتى روبينى من الملك ولم تكن معه هدية من من الرقيق . وبعد جدال وافق داود على أن يذهب أبو كامل الملك ليحضر له عددا من الرقيق . ولكن روبينى ادعى أنه رأى فى المنام ما يجعله يعجل بالسفر . وفى مدة عشرة أيام من سوبا وصل مملكة (آل جعل) وهى تابعة لمملكة سوبا وتحت حكم عمارة وملكها اسمه أبو عقرب . وبلغ مرافق روبينى ملك آل جعل بوصية أبى كامل وبقى معه ثلاثة أيام وبعدها سار مع خادمه العجوز إلى أن وصل جبل — Ataqqi حيث قابل زعيما كبيرا اسمه عبد الوهاب . وبالرغم من أنه أخبر بأن رسلا من سنار ومعهم هدايا من الملك فى طريقهم إليه إلا أنه استعجل السفر وسافر برفقته عبد الوهاب إلى دنقلا . ورافق قليلة من مشو إلى مصر . وهذا الجزء الأخير من قصته مشوش جدا .

هذه ترجمة بتصرف وفى بعض أجزائها ملخص فقط لما كتبه بالإنجليزية المستر هللسون فى مجلة السودان فى رسائل ومدونات (. . . . . Sudan Notes & Records) مجلد ١٦ صفحات ٥٥ ، ٦٦ ومنذ أن نشرت أثارت جدلا كبيرا بين الباحثين عن تحقيق بعض الأمكنة وعن الطريق الذى سلكه روبينى فى قافلته من سواكن إلى مقر عمارة دونقس . وأود أن ألخص ما نادى به من تغيرات باحثان كتبا عن حقبة الفونج كتابة وافية كل منهما بمنهجه الخاص ومصادره وهما كروفورد فى كتابه « مملكة الفونج فى سنار » معالم تاريخ سودان وادى النيل » وبعد ذلك سأعالج مخطوطة روبينى بتمعن لأستخلاص منها ما يلقى ضوءا على نشأة هذه الدولة الإسلامية فى السودان .

وموقع الخلاف هو أن روبينى ذكر أن القافلة المكونة من ٣٠٠٠ جمل سارت من سواكن لمكان سماه Arha فى بلاد كوش وقد اقترح بوروفسير بورخاردت أن روبينى يعنى قرية الحصى وتقع شمالى بربر بقليل

على أساس أنه الطريق التقليدى بين ميناء سواكن على البحر الأحمر والنيل وقد عرفت بربر بعد ذلك على أنها محط رحال القوافل الآتية من سواكن . ولكن هللسن الذى ترجم الرحلة من العبرية خالفه فى هذا الظن وكذلك المستر كروفورد استبعد أن تكون الحصا هى نهاية هذه القافلة التى ظل روبينى مرافقا لها مدة شهرين . ولذلك قاد القافلة إلى مكان فى شرق الحبشة إلى مكان يدعى AUSSA يغيب فيها نهر حواش فى سلسلة من البحيرات . وفى هذه المنطقة نشأت مملكة عدال المعروفة بزيلع . ويقول كروفورد إن هذه العاصمة لدولة إسلامية تستجمع قوتها السياسية ونهضة تجارية يحتمل أن تكون هدفا تنتهى إليه قافلة من ميناء إسلامية مثل سواكن . والجزء الذى تعبره القافلة من الحبشة كان فى حالة ضعف ولم يكن فى حرب مع مملكة عدال ومن غير المحتمل أن تعترض سبيل القافلة . وقد أحرق البرتغاليون زيلع ميناء عدال فى سنة ١٥١٦ م . وتساءل كروفورد نفسه أنه من المستغرب أن يجد روبينى ملك سنار فى هذا الموضع . ويرد تساؤله بأن روبينى لم يقل بأنه وجد عمارة هناك ولم يتبين لنا أنه وصل إلى AHSA .

أما الأستاذ الشاطر بصيلى فقد جعل قافلة روبينى « تسلك الطريق الساحلى حتى منطقة مصوع ومنها نحو الغرب إلى منطقة « لملم » مخترقة حوض التكازى . ويذكر روبينى أنه قابل السلطان عميرة فى عاصمته فى تلك المنطقة التى تقع بالقرب من منبع نهر النيل (رافد التكازى) » وفى موضع آخر يقول الأستاذ الشاطر « لم تكن للتجار المسلمين من مصلحة إلا أن يذهبوا إلى بلد له قيمته الاقتصادية وكل هذه مجتمعة تحدد إقليم (لملم) وتشير إلى بلدة أم حجار (أوم هجر فى اللهجة المحلية) . وقد عرفت هذه البلدة قبل وبعد زيارة روبينى وذلك لمركزها التجارى وسيطرته على طرق القوافل » . ومن هذا يتضح أن العاصمة Lamul التى قابل فيها الملك عمارة

هى بلدة أوم هجر على رافد التكازى وكذلك يوضح روبينى أنه خرج من لامول لسنار واستغرقت الرحلة ثمانية أيام . ولكن عندما قسنا المسافة بمقياس الرسم على خط مستقيم بين أوم هجر وسنار وجدناها ٢٠٥ ميلا والطريق لا يكون على خط مستقيم ولابد له أن ينحرف جنوبا فإذا ما أضفنا ٣٥ ميلا نتيجة لهذا الالتواء فى الطريق وقسمنا المسافة على ٨ أيام نجد روبينى يسير بمعدل ٣٠ ميلا فى اليوم وهذا مستبعد فى منطقة كهذه إذا عرفنا أن بروس كان يسير بمعدل ٢١ ميلا فى اليوم بين الحلفاية وبربر وهى منطقة مكشوفة لا أنهار تعترض المسافر ولا غابات ولا نهر من الطين كما حدث لروبينى .

رأيت أن أستعرض رأى الباحثين المشار إليهما فى الطريق الذى سلكته قافلة روبينى وبالتالى فى الموطن الأول لأسرة الفونج وسأعرض رأيى عند مناقشة وتحليل رحلة روبينى لتحديد الوطن السابق لسنار للأسرة الفونجية .

عمارة دونقس

مؤسس دولة الفونج (٢)

لنستعرض الآن تفصيلات رحلة روبيني لأنها أول وثيقة إلى الآن كتبت فى حينها بالرغم من أن رحلته يكتنفها الغموض ولا نجد رابطة بين هذه الرحلة فى بلاد كوش كما يقول ومهمته التى حاول شرحها فى أوروبا للبابا وللبرتغاليين ولإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ومما قصه علينا وهو برفقة الملك عمارة نعلم أن هناك عدداً كبيراً من الأشراف أو من ادعوا الشرف فى رفقة الملك . ولعل هذه الظاهرة تفسر لنا نوعاً ما الدافع الحقيق لرحلة روبيني ؟ فالملك عرف فى سواكن وفى جدة بأنه يكرم آل البيت ويغدق عليهم ويمنحهم من الهدايا عدداً من الرقيق . والدليل على ذلك استغراب أبى كامل عندما جاءه روبيني من سنار فى سوبا ولم يكن برفقته هدية رقيق من الملك ورأى أن يذهب أبو كامل بنفسه لإحضار هذه الهدية .

والنوع الآخر من الهدايا كما يظهر كان الذهب لأنه حسب ما وصف روبيني نفسه المنطقة التى يبسط نفوذه عليها عمارة فيها الذهب . وكلنا نعرف هذه المنطقة إلى الآن وشهرتها فى الذهب . هل بعد ذلك غرابة فى أن نجد يهودياً له ميزة التحدث بالعربية ويعرف مبادىء الدين الإسلامى لمجاورته المسلمين وسكناه معهم ألا يستغل هذه الميزة وهو يسمع عن ملك فى مجاهل إفريقية يغدق على آل البيت الرقيق والذهب . وعندما غادر بلاد الفونج ووصل أوروبا ربما ادعى أن له مهمة من أخيه ملك المجموعة اليهودية فى أرض اليمن وهو مشروع اتفق عليه مع سولومون اليهودى الآخر الذى وجده فى أوروبا ، وعندما أملى مذكراته اخترع قصة زهده فى الهدايا من الملك عندما فاتحه فى ذلك تغطية لهذا الطمع . والحقيقة أنه فر مسرعا

عندما كشفه الشريف صاحب الكتاب من مكة .

سمع روبيني بإكرام الملك للأشراف آل البيت حين إقامته فى جدة وعبر البحر الأحمر إلى سواكن لهذا الغرض وبدأ يبالغ فى صومه وصلاته حتى لا يكون هناك أدنى شك فى تقواه وانتسابه لآل البيت . وعمر أبوكامل رئيس القافلة فى سواكن أعجب به وظل صديقا له طول إقامته فى مملكة سنار . أما الرحلة فإننى لا أشك أنها اتخذت الطريق التقليدى لوادى النيل منذ أن نشأت سواكن وأصبحت مرفأ للسكان الذين يقطنون على النيل . قد يكون هناك طريق آخر لشرق السودان ولكن طريق سواكن — بربر ظل الطريق المعتاد حتى بعد أن ربط البحر الأحمر بالنيل بالسكة الحديدية بين بورت سودان الميناء الجديدة وعطبرة جنوبى بربر بقليل . فهو أقرب السبل للوصول إلى النيل لتصبح مشكلة المياه لرجال وإبل القافلة ميسرة . ولأى باحث الحق فى أن يشاء فى أن ما يعنيه روبينى قرية الحصا لأنه لم يذكر إلا عدد جمال القافلة وأنها فى طريقها إلى الحصا ثم عمارة الذى يقيم بجوار نهر النيل . وعليه أستنتج أن Asha أو Asa هذه لم تكن إلا المرحلة الأخيرة للقافلة التى استمرت شهرين فى مسيرها ومرت بصحارى وغابات ومراع وأنهار وجبال لأن المنطقة مابين سواكن والحصا بالقرب من بربر لا يشاهد فيها كل هذه الظواهر الطبيعية ولا تستمر القافلة فيها شهرين .

والتفسير بسيط جد البساطة . فالقافلة عندما تبدأ رحلتها من سواكن لا تذكر إلا محط رحالها على النيل بعد رحلة مضنية عبر الجبال والصحارى إلى النيل . والجمال التى تستأجر تكمل رحلتها على النيل ثم ترجع بالبضائع المصدرة إلى سواكن . ومن الحصا (بربر) تستأجر جمال أخرى بقافلة جديدة تقصد جنوبا إلى أرض الجعليين والجزيرة ومنطقة الفونج فى سنار وما وراءها . ومن نقطة أخرى فى أرض الجعليين كشندى مثلا تقصد كردفان ودارفور أو جنوب شرقى إلى المبطانة وحوض نهر عطبرة .

وسار روبيني في القافلة التي وصلت مقر الملك في حوض النيل الأزرق الأعلى . وفي هذه الرحلة تمر القافلة على جبال وصحارى بين بربروسواكن وعلى أنهار مثل عطبرة والنيل الأزرق . وربما عرف عند ملتقى النيلين في الخرطوم أن هناك نهرا اسمه النيل الأبيض . وحتى إن مرت قافلته في الجزيرة على الضفة الغربية من النيل الأزرق يعرف عن الرهد والدندر اللذين يصبان في الأزرق بالشرق · والمراعي في الجزيرة والغابات على طول النيل الأزرق من الحصاحيصا إلى أى نقطة في النيل الأزرق يقابل فيها عمارة .

وعرفت من صديق السيد أحمد مختار سفير السودان في القاهرة وهو من سكان منطقة الحصا وبربر أن هذه القرية تمتاز من بين مجموعة القرى في المنطقة باتساع رقعة أراضيها الزراعية وبأن بها مرفأ طبعيا المراكب · وقبيلة العبابدة التي عرفت فيما بعد أن أبناءها يسيطرون على طريق القوافل عبر صحراء العتمور إلى مصر تقيم أسر منها فيها وفي قرية نقزو بجوارها إلى الآن . وهناك أيضا (عائلة) تعرف بالخبراء · ويرجح أنهم من نسل مجموعة تولت تقديم الخبراء الذين يقودون هذه القوافل · كل هذه العوامل مجتمعة تشير إلى أن الحصا لهذه المميزات الطبعية برزت كموضع صالح تلتقى عنده القوافل . وتحمل المراكب البضائع منها شمالا أو جنوبا على النيل لاستهلاك المنطقة الشمالية . أما البضائع التي تقصد إلى حوض النيل الأزرق وهي التي رافقها روبيني على الأرجح فتتكون من جديد عند الحصا بجمالها وخبرائها · ولا بد من فترة استجمام واستراحة في الحصا في انتظار قافلة تحمل بضائع حوض النيل الأزرق وتستجم جمالها ورجالها أيضا قبل مغادرتهم الحصا جنوباً · وهذا يفسر لنا طول المدة التي امتدت إلى شهرين . ولم تعلق بذاكرة روبيني حينما أملى مذكراته في أوربا بعد ذلك أسماء الأماكن بل ذكر الجبال والغابات والصحارى · بل إن الأستاذ أحمد مختار زاد بأن أهل المنطقة يقولون بوجود مملكة نوبية فيها قبل الفونج . فالحصا والحالة هذه كانت لها هذه الميزة قبل رحلة روبيني بوقت لم نستطع تقديره

بل نرجح أنها ظهرت كنقطة تنتهى عندها القوافل منذ أن ظهرت سواكن فى الوجود كمرفأ تجارى يربط وادى النيل بالعالم الخارجى . ومنطقة الحصا أقرب نقطة على النيل صالحة لتكون محطا لرجال القوافل بعد خروجها من الصحراء لمميزاتها الطبيعية التى ذكرناها أو لأنها كانت مركزا لمملكة صغيرة حسب الروايات المحلية أو المميزتين معا . وانتقال المحطة أخيرا إلى بربر لا يخرج عن كونه انتقال أميال قليلة فى نقطة واحدة .

وأول ما يسترعى انتباه روبينى حين مقابلته الملك لونه الأسود ويعرف أنه يحكم البيض والسود والبيض هنا فيها مغالاة نوعا ما ويقصد بها أنه يحكم القبائل العربية أيضا . وهذا تأكيد على أن عمارة دونقس فى سنة ١٥٢١ — ٢٣ امتد نفوذه وبالتالى نفوذ دولة الفونج إلى الشمال من سنار وعلى البوادى مواطن القبائل العربية أو التى تعربت . والأهالى عندما يتحدثون عن الفونج يسمونهم السلطنة الزرقاء (السوداء) . ويحدد روبينى مكانه على نيل مصر ويسميها Lamul ومخطوطة الشيخ أحمد كاتب الشونة تقول أن الفونج فى أول أمرهم كانوا بمحل يعرف بلولو بتفخيم اللامين . وفى عهد أونسة الثانى وتاريخ توليته ١٦٨٠ م ورد ما يلى فى المخطوطة « وكان صاحب لهو وهوى مع الرجال والنساء حتى ظنوه بأمر قبيح وفاحشة عظيمة فلما بلغ أهله القبح ذلك أرادوا عزله هم وجنود لولو . وهم الذين يعزلونه ويولون قبل ملك الهمج عليهم وانتزاع الملك من بين أيديهم ولكنهم يعزلونه من غير قتل فحاربوه وجاءوا من الصعيد » . ألا يكون من المرجح جدا أن لامول روبينى هى لولو الموطن الأول للفونج وهى التى كان لجنودها نفوذ فى التولية والعزل فى عهد متأخر . وقد حدد مكانها على أنها فى الصعيد أى صعيد سنار . هل نحتاج بعد هذا إلى تعيين مكان آخر فى منطقة القلابات أو أرتريا كموطن للفونج قبل انتقالهم إلى سنار . وسنأتى بشواهد أخرى فى سياق القصة تؤيد ذلك .

وصف لنا روبيني أن الملك كان كثير التنقل فى أجزاء مملكته ووصف لنا الرقيق والماشية والأغنام والخيل والتبر الذى يستخرج منه الذهب . والذهب خاصة يحدد منطقة الكرفاء وبينى شنقول وهذا يؤيد أن الموطن الأول كان فى تلك المنطقة أو قريب منها . ورقيقه الذى ما زال بعضه عارياً يشير إلى جبال البرون والأنفسنا فى جنوب الجزيرة فى تلك المنطقة أيضاً وإلى ما جاورهم فى مديرية أعالى النيـــل . وهذا الشريف القادم من مكة ومعه كتاب والذى انزعج له روبينى وفر هارباً ألا يكون سجلا للأشراف تحتفظ به نقابتهم فى مكة. معروف إلى الآن أن للأشراف نقيباً فى كل بلد إسلامى تقريبا وأنه يحتفظ بسجل لهم لتوزيع ريع الأوقاف المربوطة لآل البيت . وقد يكون معه أنساب القبائل العربية الأخرى . ألا يرجح أن هذا الشريف هو الإمام السمرقندى الذى ذكره نعوم شقير . لقد ذكر شقير أن الملك عمارة لما علم بسيطرة الأتراك العثمانيين فى عهد السلطان سليم على مصر وبدءوا نشاطهم فى سواحل البحر الأحمر ظن أنهم ينوون غزو السودان ولذلك بعث لهم بأنساب قبائل السودان على أنهم عرب وأنهم يدينون بالدين الإسلامى ولا داعى لمحاربتهم وضمهم للأملاك العثمانية . وأن هذه الأنساب كتبها السمرقندى . ولم ترد هذه الإشارة إلا فى كتاب نعوم شقير ولم يشر إلى المصدر الذى أخذ منه . ومهما كان من أمر فروبينى يقرر أن هناك عددا من آل البيت أو من ادعوا ذلك فى صحبة عمارة طمعاً فى هداياه من الرقيق والذهب ووصل الحد بهم أحياناً إلى مؤامرة لاستغلاله لأقصى حد .

وعندما استأذن الملك فى الرحيل أو بالأحرى الفرار ذكر أنه سار من لامول إلى سنار فى ثمانية أيام ومر فى طريقه على منطقة أفيال ونهر من الطين . والأفيال فى تلك المنطقة آنذاك لا تستغرب ولا تقاس بالوقت الحاضر الذى طردتها فيه الحضارة منها . ونهر الطين ما هو

إلا خور يجلب مياه الأمطار إلى النيل الأزرق وعند الفيضان يمتلىء الخور و يترك طمياً فى قاعه عندما تنحسر مياه النهر والوقت الذى سافر فيه روبينى على ما يبدو هو أكتوبر بعد موسم الفيضان وبداية انحسار مياه النيل . ولم يستقر الملك فى موضع واحد حسب رواية روبينى . ومع ذلك كانت سنار قد اختطت وفيها مندوب من قبل الملك ربما للإشراف على خزينته وممتلكاته هناك .

وشخصية أبو كامل هذه تضعنا فى موضع الحيرة . فرئيس القافلة التى سافر معها روبينى من سواكن هو أبو كامل ورئيس فرقة الفرسان من الأشراف بمعية الملك فى تنقلاته هو أبو كامل وأخيرا مندوب الملك على خرائب سوبا والذى جهز روبينى للشمال هو أبو كامل . هل هو شخصية واحدة : أم شخصيتان أو ثلاث مسماة بهذا الاسم : ومهما كانت الحقيقة فإن الأشراف أو مدعى الشرف الوافدين من الخارج كانوا أصحاب نفوذ كبير على الدولة : وحتى فى العهود التالية سنرى أن الدولة فى السودان كانت تقدر الأشراف ورجال الدين الوافدين من الخارج وتغدق عليهم المنح والعطايا وإقطاعات الأراضى : وعمر التونسى فى رحلته يقول إن جده كان فى جدة حينما قابل أحد أهالى السودان الذى أغراه بالسفر لسنار حيث يجد التجلة والاحترام من ملكه . وتحت تأثير هذا الإغراء سافر فعلا لسنار ووجد ما بشره به السودانى فى جدة .

يذكر لنا روبينى سوبا وهو فى رحلته شمالا يصل إلى مملكة آل جعل وملكها أبو عقرب ومعه مرافق بوصية من أبى كامل للملك آل جعل يوصيه خيرا بروبينى ولم يذكر أنه مر على قرى أو حمل المرافق وصية إلى المانجل هناك . وهذا يشير إلى أن عبد الله جماع لم تكن له السيادة فى تلك المنطقة آنذاك كما ورد فى المخطوطات التى دونت الروايات السماعية . وليس من المعقول أن يتخطى أبو كامل حين يوصى بروبينى

الوكيل الأول للملك الفونج فى المنطقة إلى دار جعل الطريق الواضح حين يمر بقرى ولابد من المرور بها . بل إن قرى أصبحت عندما أنشئت ملتقى الطرق ومنها يعبر النيل إلى الغرب للقوافل التى تسير لدنقلا عبر الصحراء . وإذا كان صحيحاً أن الخلف بين عبد الله وعمارة حدث فى سنة ١٥٠٤ حيث اتفاق الروايات وأن عجيب إلمانجلك خليفة والده عبد الله على مشيخة قرى تولى فى حوالى سنة ١٥٧٠ يكون عبد الله ظل متربعاً على المشيخة نحو ٦٦ سنة . فإذا كان عمره حين التولية ٢٠ سنة يبلغ الـ ٨٦ سنة حين وفاته .

ليس هذا بالمستغرب ولكن الروايات التى تقول بكبر عجيب حيث نزلت أهدابه على عيونه حتى كان يعصبها إلى أعلى ليرى كانت فى نفس الوقت تتحدث عن شيخوخة وهرم عبد الله . والمرجح أن الاتفاق وتعيين عبد الله على الجزء الشمالى من المملكة حدث فى عهد عمارة الأخير وهو قد انتهى ملكه بوفاته حوالى سنة ١٥٣٤ م .

وذكر روبينى مملكة آل جعل فى هذا الوقت المبكر فى تأسيس دولة الفونج يشير إلى عراقة ملك الجعليين والذى جعل منهم أقوى القبائل وأعزها فى المنطقة فى شمال الخرطوم . وقد يكون هناك ارتباط بين تأسيس هذه المملكة فى ذلك الوقت المبكر ودعوى النسبة للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكانا نعلم انتهاء الخلافة العباسية فى بغداد على يد هولاكو وفرار العباسيين منها والتجاء الكثير منهم إلى مصر تحت حماية دولة المماليك . وعرفنا أن المماليك لتقوية مركزهم السياسى فى العالم الإسلامى نصبوا خليفة من العباسيين فى مصر حتى الفتح العثمانى فى سنة ١٥١٧ على يد السلطان سليم ولكنه لا سلطة له . ولا يستبعد نزوح بعض أفراد البيت العباسى فى مصر مع من نزح من العرب إلى السودان فى عهد المماليك . وبما كانوا يتمتعون به من مكانة بين العرب

والمسلمين ولارتفاع مستواهم الحضارى والثقافى عما حولهم كونوا لأنفسهم نواة لمملكة صغيرة والتف حولهم عرب آخرون وبعض السكان الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام وتحدثوا باللغة العربية . ويرجع هذا بعض الروايات عن تسمية الجعليين هى أن رئيسهم هذا عندما يفد عليه جماعة يودون الانضمام إليه لحمايتهم يقول لهم «جعلنا كم منا» .

يقول روبينى إن مملكة آل جعل تتبع مملكة سوبا وهى تحت حكم عمارة . وفى هذا دليل آخر على أن قرى لم تقسم بعد وأن مندوبا فى سوبا اسمه أبو كامل هذا يشرف على الجزء الشمالى من مملكة عمارة . ويستمر روبينى فى رحلته شمالا حتى يصل جبل — Attaqi مقر زعيم المنطقة والذى يسميه بعبد الوهاب . وكغيرها من أسماء الأماكن التى يسميها روبينى لا نجد ما يقابله الآن . ولكنه يرجح أنه الجبل الذى تقع عليه قرية جبل أم على . وعرفت المكان بفقرائها وقبابها : وأكرم عبد الوهاب وفادته وحضر وفد نادى على عبد الوهاب بأن هناك هدية فى طريقها لروبينى من ملك سنار ولكنها كانت وسيلة يستعجل روبينى بها سفره . ورافقه عبد الوهاب فى رحلته إلى دنقلا والقصة مشوشة فى هذا الجزء منها ولكنه يؤيد لنا الحدود الفاصلة بين مصر ومملكة الفونج والتى استقيناها من مصادر أخرى .

ويودعنا روبينى فى قافلة تسير إلى مصر عن طريق واحة سليمة ومنها يواصل رحلته إلى أوروبا ليبدأ مشروعاته التى ألمعنا إليها حتى كانت نهايته الموت فى أحد سجون أسبانيا .

ورواية روبينى عن الحالة فى حدود دنقلا الشمالية تؤيد الروايات المحلية التى جمعها بركهاردت ونعوم شقير عن الكيفية التى تمت بها تسوية الحدود . يقال إن هناك نزاعا فى تلك المنطقة بين قبيلتين (الغربية والجوابرة).

والفونج فى امتداد نفوذهم شمالا ناصروا قبيلة الجوابرة واستنجدت قبيلة الغربية بالسلطان بعد دخوله مصر فأرسل لنجدتهم فرقة من الغز بقيادة حسن قوسى ومعها الأسلحة النارية وتمكنوا بذلك من دحر الفونج . والروايات تقول إن الفونج وقعت منهم ضحايا كثيرة وسالت دماؤهم وجمعت هذه الدماء فى بركة وبنيت عليها قبة صارت فيما بعد الحد الفاصل بين الفونج والغز تحت نفوذ الأتراك فى مصر وبذلك أصبحت بلاد المحس خارجة عن نفوذ الفونج وصارت حناء هى الحد الفاصل وقامت نقطة جمارك الفونج فى مشو أشرف عليها فيما بعد ملك أرقو تحت دولة سنار .

وهذا هو الوقت الذى انزعج فيه ملك سنار عندما رأى نفوذ الترك فى الشمال وسيطرتهم على البحر الأحمر وقدم رسالته بأنساب قبائل السودان على أنهم عرب ويدينون بالإسلام ولا مداعاة لحربهم والتغلغل فى بلادهم . والترك كما فعلت الدول الإسلامية فى مصر قبلهم لم يفكروا فى غزو السودان وضمه لأملاكهم طالما أن طريق التجارة يظل مفتوحاً . فليس فى إمكانيات السودان الاقتصادية ما يغريهم إلى أن كان عهد محمد على الذى صمم على الفتح لدوافع وأسباب منها الرجال لجيشه وذهب بنى شنقول فى أعلى النيل الأزرق .

ولنرجع الآن إلى بعض الروايات المحلية التى تلقى الضوء على وطن الفونج الذى سبق تأسيس دولتهم فى سنار . فى بعض النسخ من مخطوطة الشيخ أحمد كاتب الشونة والتى يرمز إليها الأستاذ الشاطر بحرف (ف) ورد ما يلى عن أصل « الفونج قيل إنهم من بنى أمية لما انتزع منهم الملك وطاردهم بنو العباس جاء منهم رجلان إلى هذا المحل واستولدوا النساء وإن الفونج من نسلهم وقيل أنهم بلى هلاله : والشائع أن كبارهم كانوا يجتمعون عند كبيرهم ويأتون بالطعام فأكل من سبق الأكل ويقيمون —

حتى قدم رجل من السافل فنزل بينهم و نظر فى أحوالهم فثار عليهم وصار كلما جاء طعام يحبسه حتى يجتمعوا فيقوم ويفرقه عليهم فكانوا يأكلون ويفضل الباقى . فقالوا رجل مبارك لايفارقنا فزوجوه بنت ملكهم (التى) ولدت له ولدا فلما نشأ وكبر مات جده فانفقق رأيهم أن يجعلوه محل جده . ويتبعه الكل . ففعلوا ذلك ولذلك سموا بالأنساب وأقاموا بمحلهم المعروف ولما أرادوا الانتقال منه عملوا لملكهم (عنقريبا) سريرا من سرطان (خشب السرتى) ولزوجته كذلك وحملوه حتى نزلوا بهم جبل مويه وكانوا شدادا طوالا غلاظا يحمل الواحد منهم زاده وماءه على كتفه وساح وسافر . ولما صار لهم الملك صار لهم عنقريب السرطان عادة . فحين يملكون ملكا جديدا يزوجونه من نسل تلك المرأة ويسمونها بنت عين الشمس ويحملونها على تلك الحالة المتقدمة إلى حوش الجندى ويحبسونه سبعة أيام ثم يخرجون به إلى محل معروف لهم فيه عوايد تخرج لهم من الأرض يتفاءلون بها بخروجها ويتشاءمون بعدمها وهى باقية فيهم حتى انتهى ملكهم والله أعلم » .

سياق الرواية يدل على أن من أتى إلى المنطقة رجلان وتزوجا واختلطا بالسكان . ثم أتاهم رجل السافل وقد يكون من أى منطقة من سنار فشمالا . وابنه من بنت الملك هو الذى استمر الملك فى نسله . ثم هذه العادات والتقاليد المحلية التى انطبعت بطابع المنطقة تدل على أنه مهما كان أصل الأقلية الحاكمة فإن عادات وتقاليد الشعوب هى التى تتغلب وهناك مادونه المستر دزنى كما ترجمه الأستاذ الشاطر عن تتويج ملك الفونج فى فازوغلى وذلك فى فبراير سنة ١٩٤٤ م ، ذكر فى مقاله أن بعض رجال العمدة قد أقبلوا وأخذوا من الجندى قطعة من القماش الأبيض كان متمنطقا بها وظللوا بها الملك لتحجب عنه أشعة الشمس حتى لا يتعرض لها قبل إتمام التقاليد المرسومة لولاية الحكم . وبعد ذلك تقدم بعض الرجال متشابكى الأيدى ليهيئوا مقعدا لحمل الملك إلى حوش الجندى الذى يبقى فيه حتى المساء . ومن ثم ينقل إلى منزل خاص منعزل يحبس فيه ومعه عذراء تشاركه محبسه الذى تصل مدته إلى سبعة أيام وفى نهاية هذه الفترة قد يختارها

زوجة له أو غير ذلك . ويبقى الحبيسان تحت حراسة الجندى لمنع الاتصال الخارجى . كما لا يسمح لأحد بالبقاء فى المنزل إلا لعجوز تقوم بتدليك الحبيسين وتطييبهما بالعطور المختلفة التراكيب . أما الغذاء فان الجندى ينقله إليهما بعد إعداده فى الخارج ويتحتم على الملك أن لا يتعرض خلال فترة الاعتكاف لضوء الشمس حيث أن تعرضه للضوء يعد مخالفة للعوائد وتؤدى إلى حرمانه من العرش والانتقام منه » .

ألا تشابه هذه العادات عند التولية فى فزوغلى سنة ١٩٤٤ ، تلك العادات التى ذكرت عن تولية الفونج فى موطنهم الأول قبل سنار . فإذا أضفنا إلى هذا ماأورده روبينى عن وجود عمارة فى لامول وعما أوردته مخطوطة الشيخ أحمد فى موضعين عن لولو التى هى فى الصعيد وأن الفونج فيها يتدخلون عند الأزمات فى تولية وعزل ملوك سنار أدركنا أن موطن الفونج الأول والذى منه بسطوا نفوذهم شمالا هو منطقة النيل الأزرق عند حدوده مع الحبشة إلى الرصيرص وربما إلى شماله .

يستطرد الأستاذ الشاطر فى كتابه « معالم تاريخ سودان وادى النيل » فى وصف طريقة تتويج الملك فى سنار فى عهد مملكة الفونج مما جمعه من مختلف المصادر والروايات . فالمرحلة الأولى هى مرحلة الاختيار من بين المرشحين للعرش عندما يخلو العرش بسبب الوفاة أو العزل . وفى غالبية الحالات يكون من بيت الملك ومن أقرب الأقرباء للملك السابق . وعملية الاختيار يقوم بها مجلس من أكابر الدولة من العائلة المالكة . وعندما يقع الاختيار تبدأ المراسيم المعتادة بأن يؤخذ المنتخب إلى المحبس فى حراسة جندى ومعه العذراء . وبعد نهاية فترة الاعتكاف يقوم الجندى بمرافقة الحاكم من المحبس إلى ساحة التتويج حيث يجتمع رجال الدولة والأمراء من البيت المالك ومعهم الرعية ويقام الككر (الكرسى) تحت ظل شجرة كبيرة . وعندما يصل المنتخب يقوم الجندى بحلق شعره بعد خلع القفطان

ويتقدم أكبر رجال الدولة من البيت المالك بقفطان جديد وعباءة ويلبسهما إياه وتوضع على رأسه الطاقية ذات القرنين ويسلم إليه السيف . وبعدها يجلس على الككر ويتقدم الوزراء ورجال الدولة والمشايخ للبيعة والتحية . ومن تقاليد التحية أن يتمنطق الزعيم بثوبه ويقبض الحاكم الجديد بيديه على يدى الزعيم وتخرج موسيقى من القرب بينما يقوم الفقهاء بقراءة الفاتحة وترتيل الأدعية .

وبعد ذلك يكملون العادة القديمة بخروجهم إلى مكان معين ينتظرون فيه خروج عوائد بها يتفاءلون أو يتشاءمون بعدم خروجها وبعدها إلى النيل حيث يدخل الملك فى الماء حتى يصل رقبته ويغطس فيه وتنتهى عندها المراسيم. ومن عادة السلطان أن يقوم بافتتاح الموسم الزراعى برمى البذور وبالحصاد عند جمع المحصول . ومن هذا يتضح أن المراسيم تضم عادات وتقاليد ترجع إلى حضارة الفراعنة وحضارة النوبة لأن الطاقية ذات القرنين وجدت فى صور آثار النوبة . ويرجع بعضها إلى عادات المنطقة ثم أخيرا عندما دخل الإسلام أضيف إليها قراءة القرآن وترتيل الأدعية .

وقد ورد ذكر جبل مويه فى داخل الجزيرة بالقرب من سنار فى كثير من المصادر وأن عمارة دونقس حضر إليه قبل تأسيس سنار واستبعد بعض الباحثين إقامة الملك بحاشيته الكبيرة فى تلك المنطقة المقفرة . وهم ينسون أن هذه المنطقة فى زمن الأمطار تكثر فيها الحشائش للمرعى وتتكون البرك للشرب وهى بارتفاعها تكون صحية للإنسان والحيوان وقت تكاثر الأمطار . وقد عرف عن قبيلة رفاعة الهوى إلى ما قبل المهدية أنها تسير بقطعانها من الماشية والإبل والأغنام عند الرشاش (بداية موسم الأمطار) من مواطنها داخل الجزيرة حتى تصل بعض فروعها لقرب الخرطوم إبان اشتداد الخريف وترعى وتسقى بهائمها ثم تقفل راجعة إلى مواطنها

عند انتهاء الموسم بعد أن تبدأ أرض الجزيرة فى الجفاف لتجد الخضرة والماء فى مواطنها لكثرة أمطارها . وقد رأيت أرضاً فى امتداد مشروع المناقل قيل لى إنها كانت مخيما لقبيلة رفاعة عندما تسير فى رحلتها هذه للجزيرة ويكثر فيها الرماد مما جعلها غير صالحة لإنتاج القطن . واضطرت إدارة الجزيرة لحذفها من الدورة الزراعية مما يؤيد هذه الهجرة للقبائل العربية وتنقلاتها بين منطقة الجزيرة العليا ومنطقتها السفلى وجبل مويه تكون مرحلة وسطى تتوقف فيها هذه الهجرات فى أوائل الخريف عندما تمتلىء البرك وتنمو الحشائش .

هذه هى الحقائق التى استخلصناها من رحلة روبينى وما دون من الروايات السماعية فى المخطوطات المحلية فى أوائل القرن التاسع عشر . وهى تصور لنا حالة المجتمع السودانى فى وادى النيل فى تلك الفترة التى اضمحل فيها نفوذ مملكة علوة المسيحية وكثر تدفق العرب إلى البلاد واستقرارهم واختلاطهم بالسكان وأخيراً تغلبهم على المنطقة بنشر الدين الإسلامى واللغة العربية فى معظم أجزائه .

وتمازجت حضارات الفراعنة والنوبة وإفريقية مع حضارة العرب والمسلمين وكان من نتائجها قيام دولة الفونج كدولة إسلامية لأول مرة على أنقاض مملكة علوة المسيحية .

عهد الشيخ عجيب المانجلك

والنهضة الدينية

حكم عمارة دونقس نحو ثلاثين سنة من ١٥٠٤ إلى ١٥٣٤ وخلفه ثلاثة ملوك لم يذكر عنهم إلا تاريخ توليتهم ولكننا عندما نأتى دكين بن نايل الذى تولى الملك فى سنة ١٥٦٩ وظل فيه نحو خمس عشرة سنة تذكر عنه مخطوطة الشيخ أحمد المنقحة ما يلى : « وهو من أخر ملوك الفونج فرتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لهم قوانين مربوطة لا يتعداها أحد من جميع أهل مملكته وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيساً معلوما وقنن لمن عادته الجلوس بحضرته رتبا الأعلى فالأعلى فى جلوسهم أمامه » . لعل هذا الترتيب يشير إلى تركيز نظام تولية المشايخ فى الأقاليم بطريقة رسمية هى التى سار عليها العهد فيما بعد وجعل برتوكولا خاصا للجلوس فى حضرته مما جعل الأستاذ الشاطر يقول بأن هذا نتيجة التأثير التركى فى الإدارة والحكم . ثم تلاه ثلاثة ملوك وفى رواية اثنان لم يظهر لهم أثر يذكر .

وقبل أن نتابع سلسلة ملوك الفونج يجدر بنا أن نتجه إلى قرى عاصمة العبدلاب وكلاء الفونج فى الإقليم الممتد من أربجى بالقرب من الحصاحيصة إلى الحدود الشمالية مع مصر وإلى سواكن على البحر الأحمر . وتظهر لنا هنا شخصية الشيخ عجيب المانجلك خليفة والده عبد الله جماع مؤسس أسرة العبدلاب . والروايات تقول بأنه جلس على مشيخة العبدلاب هذه من حوالى سنة ١٥٧٠ إلى سنة ١٦١١ حين قتل فى حرب ضد الفونج . واشتهر عهده بنهضة علمية دينية نتيجة قدوم كثير من العلماء والأولياء الصالحين إلى السودان .

وقد رأينا فيما سبق هذه الحاشية الكبيرة من آل البيت الأشراف

التي كانت ترافق عمارة مؤسس دولة الفونج في جولاته في أرجاء مملكته والتي وصفها روبيني والإكرام والإجلال والمنح والهدايا التي كان يغدقها عليهم . وكانت هذه ضرورة عاجلة وملحة لأن المسلمين في بلاد السودان قبيل تأسيس الدولة كانوا يجهلون أمور دينهم حسب ما وصفهم صاحب الطبقات لأنهم كانوا يتزوجون المرأة قبل إكمال عدتها من زوجها السابق . والآن وقد قامت الدولة الإسلامية فلا بد من معالجة هذا النقص بجذب العلماء ورجال الدين من الأقطار الإسلامية الأخرى لهذه الدولة الناشئة في مجاهل إفريقية لإرشاد الناس في أمور دينهم . ووالدة الشيخ عجيب حسب بعض الروايات بنت الشريف أبو دنانة وهذا مؤهل له لأن يحترم الناحية الدينية ويقوم بكل ماينشر التعاليم الدينية وما يرشد الرعية إلى أمور دينهم . ويورد ود ضيف الله صاحب الطبقات في عهد الشيخ عجيب هذا النص « في أول ملكه قدم الشيخ إبراهيم البولادي من مصر إلى دار الشابقية ودرس فيها خليل والرسالة وانتشر علم الفقه في الجزيرة ثم بعد ذلك قدم الشيخ تاج الدين البهاري من بغداد وأدخل طريقة الصوفية في دار الفونج ثم قدم التلمساني المغربي على الشيخ محمد ولد عيسى سوار الذهب وسلكه في طريق القوم وعلمه علم الكلام وعلوم القرآن والتجويد في الجزيرة لأنه حفظ عليه القرآن عبد الله الأغبش ونصر ولد الفقيه أبو سنينة في أربجي . ثم ظهرت ولاية الشيخ أدريعل من غير شيخ قدم عليه . قيل أخذ من الرسول عليه الصلاة والسلام وقيل قدم عليه رجل من المغرب بالخطوة اسمه عبد الكافي . وبعده بيسير ظهرت ولاية الشيخ حسن ولد حسونة بمدد من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قدم الشيخ محمد بن قدم بدار بربر وأدخل فيها مذهب الشافعي وانتشر مذهبه في الجزيرة . ثم قدمت المشايخة وخطت مدينة الحلفاية . ثم قدم حمد ولد زروق في الصبابي . ثم قدم الشيخ محمد المصري دار بربر ودرس فيها علم التوحيد والنحو

والرسالة وانتشر علمه فى الجزيرة . وجميع هؤلاء المشايخ المذكورين فى دولة الشيخ عجيب المانجلك » .

بعد موجة الأشراف آل البيت التى حضرت إلى السودان فى عهد عمارة والذين ربما لم يكن بينهم العلماء والأولياء بل ربما كان هدفهم استغلال الملك وأتباعه قدمت هذه الجماعة فى عهد عجيب وبينهم العالم وبينهم الولى الصالح وبينهم من جمع بين الاثنين وبينهم من أدخل المذهب المالكى أو الشافعى . ويسترعى انتباهنا شخصيتان ربما كان لهما أكبر الأثر فى تطور الحياة الدينية فى السودان فيما بعد لاختلافهما فى الاتجاه الدينى . أولهما شخصية الشيخ إبراهيم البولادى الذى نشر علوم الشريعة والفقه وكون بذلك مدرسة انتحت نحو العلوم الظاهرية وكان منهم القضاة ومن أفتوا الناس فى أمور العبادات والأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث . والشخصية الثانية هو الشيخ تاج الدين البهارى الذى أدخل طريق الصوفية وطريقة الشيخ عبدالقادر الجيلانى بالذات وكون هو بدوره مدرسة انتحى أصحابها نحو الحياة الصوفية الباطنية . وتتابعت الطرق الصوفية بعد ذلك إلى السودان .

وفيما تلا ذلك عهود كان النزاع والخصام يشتد بين الفريقين على فتاوى خاصة وكانت الغلبة حسب ما يروى صاحب الطبقات للصوفية ومع ذلك كان علماء الفقه والشريعة يعاملون بكل تجلة واحترام لأنه لا يعيش مجتمع إسلامى بدونهم ، وتأثير الصوفية فى المجتمع السودانى كان أقوى وأبعد أثرا لأن الشيخ منهم يكون رابطة من مريديه وأنصار طريقته يجتمعون فى حلقات الذكر ويتلون أوراد الطريقة . وفوق ذلك كان لكل شيخ كراماته التى تروى عنه . وعندما ينتقل للدار الآخرة تقام على ضريحه قبة تكون مزارا لأتباع الشيخ أو الطريقة يتجمعون فيها فى مناسبات الأعياد

والمواسم الدينية . ويجلس على كرسيه خليفة من نسله يظل مرشدا وهاديا وقدوة لأتباع والده ويخلفه غيره . وهكذا تظل رابطة التبعية والأخوة للطريقة حية وجامعة لشملهم وينضوى تحتها الأجيال الناشئة يتلون الأوراد ويتذاكرون كرامات مشايخهم ويطلبون حاجاتهم فى أضرحتهم . بينما العالم مهما بلغ الذروة فإنه لا خليفة له وبذلك تمحى آثاره وتزول رابطة تلاميذه بموته وموتهم .

ولنستعرض ما أورده ودضيف الله فى طبقاته عن هؤلاء العلماء والأولياء الصالحين الذين ذكرهم فى مدة ولاية الشيخ عجيب .

فعن الشيخ إبراهيم البودلاى بن جابر يقول : « ولد السادة الركابية ولد بترنج جزيرة بأرض الشايقية ودخل إلى مصر وتفقه على سيدى الشيخ محمد البنوفرى وأخذ عليه الفقه والأصول والنحو ثم رحل إلى ترنج ودرس فيها خليل والرسالة وهو أول من درس خليل ببلاد الفونج وشدت إليه الرحال ومدرسته فى خليل سبع ختمات وعلم فيها أربعين إنسانا ومن جملتهم الشيخ الصالح وعبد الرحمن أخوه . . . . وأولاد جابر الأربعة كالطبائع الأربعة أعلمهم إبراهيم وأصلحهم عبد الرحمن وأودعهم إسماعيل وأختهم فاطمة أم الشيخ صغيرون نظيرتهم فى العلم والدين » . ويتضح من هذا أن مدارس العلم والقرآن كانت قائمة قبل عهد عجيب فى الجزء الشمالى من السودان والذى أصلح إسلامها منذ جلس على المقرة فى دنقلا أول ملك إسلامى حوالى ١٣٢٣م وأن ما قام به الشيخ إبراهيم البولادى هو الهجرة إلى مصر والتتلمذ على علمائها ورجوعه لبلاده لتدريس ما أفاد من علم هناك . وأنه بذلك حسب رواية ودضيف الله يكون أول من أنشأ مدرسة للعلوم الدينية وتخصيص مختصر خليل . يدل على تغلب المذهب المالكى وتلاميذه نشروا العلم وفقهوا الناس وأفتوهم وتتلمذ على أيديهم جيل آخر وهكذا .

وعن تاج الدين البهارى يقول « اسمه محمد والبهارى نعته مأخوذ من قولهم قمر باهر مضيء وسمى بذلك لضياء وجهه . . . هو الشيخ الإمام القطب الربانى والغوث الصمدانى خليفة الشيخ عبد القادر الجيلانى مولده ببغداد وحج الى بيت الله الحرام . وقدم إلى بلاد السودان بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ عبد القادر الجيلانى وقدم مع داود ابن عبد الجليل أبو الحاج سعيد جد ناس العيدى . وقدومه أول النصف الثانى من القرن العاشر أول ملك الشيخ عجيب كما وضحناه من أول الكتاب وسكن فى ظهرت وادى شعير بجهة أم عظام وموضع خلوته إلى الآن باق يوجد فيه مكسور الزجاج وهى وسط الترس الذى يقال له ترس نقى . وتزوج امرأة من ناس العك وولد منها ابنتين وقيل ثلاث وأقام فى الجزيرة سبع سنين وسلك خمسة رجال منهم الشيخ محمد الهميم والشيخ بان النقا الضرير وحجازى بانى أربجى ومسجدها وشاع الدين ولد التويم جد الشكرية والشيخ عجيب الكبير . . . . وقيل سلك أربعين إنسانا منهم الفقيه حمد النجيص صاحب مسجد إسلانج والفقيه رحمة جد الحلا ويين والعمدة ولد عبد الصادق ربان النقا وقال الولدين يحيو البلد وقيل سافر إلى تقلى . وسلك فيها عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعة . فلما أراد السفر إلى الحجاز قال لجيرانه أنا جيت من بغداد لأجل هذا الولد خلفته فى مكانى مثل ما بتعاينولى عاينوا له ثم أعطاه الأسماء والصفات ومعرفة دخول الخلوات والرياضة » .

ويبدو أن الشيخ تاج الدين هو فى الحجاز أغراه داود المشار إليه بالقدوم إلى السودان لإرشاد الناس ، وصور له حالة الجهل المتفشية وترحيب الحكام بالعلماء والأولياء والصالحين ومثل ما أدخل إبراهيم البولادى الفقه والشريعة فإن تاج الدين أدخل طريق الشيخ عبد القادر الجيلانى ومعظم نشاطه على ما يظهر كان فى الجزيرة ومثل ما قام تلاميذ إبراهيم

بنشر الفقه والشريعة قام تلاميذ تاج الدين بنشر الصوفية . ومما زاد فى أهميته أن الشيخ عجيب حاكم الإقليم كان من مريديه وأتباعه .

أما محمد بن عيسى فهو « محمد بن عيسى بن صالح البديرى المشهور بسوار الذهب وأمه اسمها حقيقة . قرأ خليل على أبيه الشيخ عيسى فأخذ عنده ختمة تامة والثانية إلى الجنايز فتوفى أبوه ودرس بعد أبيه وقرأ العقائد والمنطق وعلوم القرآن على المصرى وسلك عليه الطريق ثم انتشر علم الشيخ محمد فى جزيرة الفونج وممن أخذ عليه علم التوحيد والفقه حسين أبو أشعر شيخ أولاد برى وممن أخذ عليه القرآن وأحكامه الشيخ عيسى ولد كنو وعبد الله الأغبش والد البش ونصر الترجمى والد الفقيه أبو سنين شيخ أربجى والفقيه عبد الرحمن ولد أبو ملاح والد الشيخ خرجلى . وأصحابه فى الطريق الشيخ عووضه شكال القارح والشيخ عبد الله راجل قوى والشيخ عبد الرحيم بياع المطر والفقيه محمد ولد عباس راجل وهيبه وأنقاوى والفقيه حمد ولد أبو حليمة الركابى رأجل شراوا . فهؤلاء أخذوا عليه الطريق والعلم وكان ملك ملوك الجان السبعة وأطاعته الفونج وملوك جعل والملك بادى أبو رباط كتب له خاتما جميع مايقرأ عليه فهو جاه الله ورسوله دارهم ورقابهم . وهذا الأمر مستمر إلى زماننا هذا . وكان بينه وبين الشيخ إدريس أخوة واتحاد وأوصيا الخضر عليه السلام على ذريتهما من بعدهما وكان صاحب حكمة وموعظة حسنة . . . . ومن كراماته أن دنقلا أصابها غلاء شديد وجاءته الناس والملوك قالوا نحن جائعون فأعطاهم جريد النخل فانقلب فضه . وتولى القضاء وحكم بالمتفق عليه والقوى من الخلاف ودفن بدنقلا وقبره بها ظاهر يزار » . وهذا رجل ثالث جمع بين طريق الصوفية والعلوم الشرعية ونشأته فى دنقلا حيث سبقه جيل أو أجيال من الذين درسوا العلوم الدينية

وعن الشيخ إدريس محمد الأرباب بن على بمهد ودضيف الله . بمقدمة

قصيرة نصها : « الـكلام فيه على أربعة أبواب الباب الأول فى التعريف أنه من أهل هذا الشأن وأنه الحامل فى وقته لواء أهل الأعيان ، الباب الثانى فى كرمه وعلمه وزهده وورعه وحلمه وصبره وسداد طريقته . الباب الثالث فى ألفاظه الجامعة لحكمة الحكماء وعلم العلماء من غير أن ينظرها فى كتاب . الباب الرابع فى كلامه على الأفلاك العلوية وأحوال حملة العرش وفى العالم السفلى إلى ما تحت الثرى . الباب الخامس فى ماتكلم عليه من المغيبات منها ماوقع ومنها ماهو منتظر الوقوع » . وتحدث ودضيف الله بإسهاب عن كل باب من هذه الأبواب والصورة التى تبدو من وصف صاحب الطبقات أنه بلغ درجة قصوى فى الولاية والصلاح . وجرت مناظره فى زمنه بين العلماء والأولياء عن القهوة والتنباك وهل هما حلال أم حرام . وانتقل الجدال إلى علماء الأزهر للفتوى فيهما . وفى هذا دلالة للاتصال الرئيمى بين رجال الدين فى السودان والأزهر الشريف . وصفة والده بالأرباب تدعونا للنظر فى معنى هذه الـكلمة التى عرف عنها مؤخرا أنها لقب من الألقاب التى تضفى على من هم من عائلة لها حكم إقليمى . وإذا حللناها إلى مقطعيها وهما أرب واب كما تنطق باللهجات المحلية العجمية السائدة فى السودان قبل دخول العرب نجدها قد تعنى العربى .

أما الشيخ حسن ودحسونه فيقول عنه صاحب الطبقات إن جده الحاج موسى قدم من المغرب من الجزيرة الخضراء من جزائر الأندلس ، فتزوج فى المسلمية فولد حسونه ، والد الشيخ حسن . إذا صحت هذه الرواية فربما يكون أجداده من أولئك الذين أجلاهم الأسبان من المسلمين عن الأندلس . ومثل ما يسهب ودضيف الله فى الحديث عن الشيخ إدريس يسهب أيضا عن الشيخ حسن وعن كراماته وكرمه الزائد وعن قطعان الغنم التى يمتلكها وعن رقيقة وعن زهده وتقشفه مع غناه وإكرامه

للناس بأطايب الطعام . وهو من المتصوفة الزهاد أصحاب الـكرامات لا من أصحاب الفقه والشريعة .

والشيخ حمد ولد زروق « قدم هو والفقيه جار النبي من حضرموت بأرض اليمن ولم يعلم حالهما هل هما أغراب (فى نسخة منديل أقاربه) أم ناس بلد وكان من عباد الله الصالحين . سكن الصباغ وكان بينه وبين البندار شيخ الشيخ إدريس فى المكتب أخوة شديدة وكان ساكنا قدامه فى الخلا . قالوا بعد العشاء يفرش فروته يصلى ركعتين إلى أن يصل إليه ثم يرجع » . وظهرت له كرامات . والمصرى محمد القناوى « أخذ العلم من الشيخ سالم السنهورى والشيخ يوسف الزرقانى والد عبد الباقى شارح خليل قدم بلاد الفونج أول النصف الثانى من القرن العاشر فى زمن الشيخ عجيب ودخل بربر ومدينة أربجى وسنار ووافقته سكنى بربر وقال هواها أطيب من جميع البلاد وبنى مسجده بها لتدريس الرسالة والعقائد والنحو وسائر العلوم وولى القضاء . وباشره بعفة ونزاهة وحرم الرشوة على الحـكام ونهى عنها . قيل له إن قناوى ولدك ارتشى فى أحكامه فركب دابته فى السوق ورفع ثوبا أبيض وقال قناوى ولدى ارتشى فى أحكامه حكمه باطل وأجاز أجرة كاتب الحـكم وشرط فيها دجاجة وما يصلحها من فلفل وكزبره وبصل » .

إذا عرفنا أن الشيخ عجيب قتل سنة ١٦١١م وهذه هى الصور للحياة الدينية والثقافية فى السودان لأدركنا أثرها على حياة الناس وتركزها فى مجتمعهم مدة تزيد على القرنين قبل فتح محمد على للبلاد فى سنة ١٨٢١م وأن المجتمع السودانى الحاضر تـكيفه هذه الحياة الدينية إلى الآن وأن التطورات التى حدثت بعد محمد على لم تستأصل هذه التقاليد . فلا زالت الطرق الصوفية والأخوة فى الطائفة الدينية من أقوى روابط المجتمع السودانى .

وعرف الشيخ عجيب بمصاهراته المتعددة لقبايل شرقى السودان والروايات عن ذلك ولو أنها متناقصة إلا أنها توضح بما لا يدع مجالا للشك فى أنه اهتم بشرقى السودان وبسواكن خاصة حيث كان يقيم فيها حينا من الوقت إذ أنه له نصيب من (جمركها) كوكيل لملك سنار . وعندما يتحدث سكان شرقى السودان فى رواياتهم المحلية عن الفونج فإنهم يقصدون العبدلاب وكلاء الفونج على تلك المنطقة وما يقال عن قتال حدث بين قبائل شرق السودان والفونج وعن مقابرهم فهم يقصدون بذلك العبدلاب . وعرف عن الشيخ عجيب أنه بنى مساجد عدة خاصة فى الجهات التى لا زال سكانها على دين الوثنية كما أنه بنى الرواق السنارى فى المدينة المنورة لإيواء أهل السودان ورواق السنارية فى الأزهر الشريف لطلبة العلم السودانيين . والعلماء والأولياء الوافدون أقطعهم الشيخ عجيب الأراضى إغراء لهم على البقاء فى البلاد وإرشاد الناس .

وعند ما بلغ الشيخ عجيب قمة مجده وأرسى أسس الحياة الدينية فى السودان نسمع أنه دخل فى حرب ضد الفونج وانتهى الأمر بهزيمته وقتله. وتروى مخطوطة الشيخ أحمد كاتب الشونة الأصلية ما يلى : « ثم ملك بعده الملك عدلان ولد آيا . وهو صاحب قتال كركوج . وهو الذى قتل الشيخ عجيب الكافوته لما عصاه وخرج عن طاعته . سار إليه من سنار ويقال إنه نزل بألتى وأرسل الجيش فتلقاهم الشيخ عجيب المذكور ومن معه بمحل يقال له ولد أبى عمارة معرف بجوار كركوج فاقتتلوا هناك وقتل الشيخ عجيب المذكور وانتصرت حملة الملك وهرب أولاد الشيخ عجيب إلى دنقلا ونص هذه المخطوطة للشيخ أحمد وهو متأثر بروايات جانب الفونج لأنها كانت متداولة فى الجزيرة منطقة نفوذهم مقر الكاتب . ومنها يتضح أن الشيخ عجيب بدأ بالعصيان على الفونج والحملة عليه من جانب الملك هى عقابه على عصيانه . وقرية التى تقع بالقرب من المسيد على الضفة الغربية

من النيل الأزرق ومعنى ذلك أن القتال حدث فى المنطقة ما بين المسيد والخرطوم . ولكن كركوج التى وقع القتال بجوارها تقع على الضفة الشرقية للنيل . ومعنى ذلك إما أن تكون قرية ولد أبى عمارة بالضفة الغربية قبالة كركوج وإما أن يكون الجيش زاحفا بشرقى النيل وتأخر عنه الملك بالضفة الغربية ليكون فى مأمن .

والنسخة المنقحة من مخطوطة الشيخ أحمد تشير أيضا إلى أن الشيخ عجيب خرج عن طاعة ملك الفونج وارسلت إليه العساكر ووقع القتال بالقرب من كركوج وانهزم وقتل وفرت (عائلته) إلى دنقلا ولكن الملك أجاب وساطة الشيخ إدريس ود الأرباب وهو مقيم فى العيلفون بالقرب من منطقة القتال لإرجاع أبناء عجيب من دنقلا فرجعوا وأجلس العجيل على كرسى مشيخة العبدلاب بدلا من أبيه . وفى أخبار الشيخ إدريس أن عجيبا استشاره فى قتال الفونج لأنهم غيروا العوائد ونصحه الشيخ إدريس أن لا يغامر بحرب معهم لأنهم سيقتلونه ويملكون ذريته إلى يوم القيامة . وتروى هذه ككرامة من كرامات الشيخ إدريس . ومن توارد هذه الروايات واتفاقها يتضح لنا أن الشيخ عجيب ثار على الفونج لأنه كما قال الشيخ إدريس لم يلتزموا بالاتفاقات التقليدية معهم أو لعله أنس من نفسه قوة وعزة جعلته يقطع هذا الحبل الذى يربطه بهم ويعلن استقلاله الكامل عنهم . . .

بعد انتهاء هذا القتال يحدث صاحب المخطوطة عن عزل عدلان ودآيا وجلوس بادى سيد القوم على العرش ولا يبدى لنا أسباب هذا التغيير وخاصة بعد انتصار جيوش عدلان على عجيب . وفى ترجمة الشيخ إدريس فى الطبقات ورد هذا النص عن كراماته ، ومنها أخباره الملك بادى أبى رباط حين جاء هو والملك عدلان ولدآية طالبين قتال الشيخ عجيب .

وبادى المذكور حوار(تلميذ) إدريس فقال تقتلون الشيخ عجيبا وتنتصرون وأنت ترجع إلى سنار ملكا ويكون الملك فى ذريتك من بعدك. فكان الأمر كما قال » . وفى ترجمة الشيخ صغيرون وردما يلى « وقيل إن الملك وأبا رباط سيد القوم الملك عدلان ولد آية وكان معتقدا فيه . فإن الملك عدلان بعد أن قتل الشيخ عجيب فى كركوج سافر بجيوشه داردنقلة. فلما جاء فى مشو عزله الفونج وولوا بادى سيد القوم الملك فحينئذ طلب منه أن يسافر معه إلى الصعيد فقال بلحقك » .

فإذا صحت هذه الروايات فإن عدلان كان الملك . ولكنه بقى فى ألتى وقاد الجيش الذى تم له الانتصار بادى سيد القوم ثم ذهب الاثنان سويا إلى دنقلا وهناك لأمر ما عزلوا عدلان ونصبوا بادى بعد هذا النجاح العظيم الذى لازمه فى القضاء على حركة العبدلاب الانفصاليه . ولا سيما أن بادى هذا ابن عبد القادر الذى كان ملكا قبل عدلان وخلع عن الملك واختير بدلا منه عدلان . والفرصة قد سنحت لبادى بعد انتصاره العظيم أن يسترد الملك لبيته . غير أن الأستاذ الشاطر بصيلى يشك فى أن يكون عدلان ملكا على سنار بل يرجح أنه كان يشغل منصب سيد القوم الذى قاد الجيش ويحتمل أن شخصيته القوية حجبت السلطان . ثم يستطرد ويقول « وتولى الملك بعده السلطان بادى سيد القوم ابن السلطان عبد القادر » .

ولكننى أعتقد أن عدلان كان هو الملك بدليل أنه سمى بالملك عدلان عندما بقى بألتى وأن بادى ولقبه سيد القوم وهو قائد الجيش فى الحرب هو الذى قاد الجيش وبدليل أن الشيخ إدريس أخبره بأنه سيرجع إلى سنار ملكا .

ومما تقدم فى بحثنا عن دولة الفونج الإسلامية يتضح لنا أن عمارة دونقس منذ ١٥٠٤ ظهر كزعيم دولة ناشئة على أساس إسلامى وبسطت نفوذها أولا على حوض النيل الأزرق الأعلى . وكان كثير التنقل فى أرجاء مملكته وأن سنار اختطت فى عهده كعاصمه ولكنه لم يستقر فيها عند ما زاره روبينى فى سنة ١٥١١ . وامتد نفوذ الدولة شمالا وظهرت شخصية عبد الله جماع كأكبر زعيم فى المنطقة الشمالية نيابة عن ملك سنار . وفى عهد دكين الذى تربع على العرش حوالى ١٥٦٩ تركز الهيكل الإدارى للدولة فى مشيخات تحكم الأقاليم يقوم بتعيين رؤسائها بطقوس وتقاليد خاصة الملك أو شيخ العبدلاب نيابة عنه . وفى عهد عجيب ما بين ١٥٧٠ و ١٦١١ على وجه التقريب قدم إلى مملكة سنار عدد من الأولياء والصالحين والعلماء وهاجر السودانيون إلى الأزهر الشريف لاستكمال تعليمهم الدينى هناك .

وتتابع التلاميذ الذين درسوا على أيدى هؤلاء العلماء وقامت الطرق الصوفية التى انتظم فى سلكها العديد من الأتباع والمريدين من العامة معظمهم وبعضهم من الخاصة . وأردت بما أوردته من مقتطفات من كتاب الطبقات عن هذا العهد أن نعيش فى جوه مما امتد أثره إلى ما بعده من العهود إلى يومنا هذا .

تطور الحوادث فى القرن السابع عشر

بعد مقتل عجيب المانجلك

تركنا الفونج فى الفصل السابق وقد استعادوا نفوذهم الذى تمرد عليه الشيخ عجيب ووصلو إلى حدودهم الشمالية . وحينما رجع بادى الأول والذى كان معروفاً بسيد القوم إلى سنار بدأت مشكلته فى علاقاته مع الحبشة . ويظهر أن والده المخلوع عن العرش قبل عدلان ودآية قد التجأ للحبشة وأبدى خضوعاً وولاء لإمبراطورها عله يسنده فى محاولاته لاسترجاع ملكه وأقطعه منطقة شلقا . وحين غزت بعض فرق جيوشه أراضى الفونج على التخوم أعطى ما غنموه هدية لعبد القادر . وهو بدوره ساعد مع أمير لاجىء أيضاً من العبد لاب الإمبراطور فى حربه ضد منطقة تمردت عليه . ويروى أن الإمبراطور بعث بهدية لبادى سوارا من الذهب وكرسياً مطعما بالذهب وأدرك بادى حسب العرف والعادة المتبعة آنذاك أن الإمبراطور يقصد تبعيته له . غير أن ملك سنار رد بهدية يستنتج منها الإمبراطور أنه يرفض هذه التبعية . والهدية هى خيول عرجاء .

ومما زاد فى سوء التفاهم بين الفريقين أن نائل ود العجب ولعله زعيم رفاعة الشرق هاجم إقليما فى الحبشة واحتج الإمبراطور لدى ملك سنار ولكن الملك أجاب بالصمت . وكذلك لجأ حاكم مقاطعة حبشية للأراضى السنارية بفرسانه ونحاسه . وطالب الإمبراطور بإرجاع النحاس على الأقل ولم يأبه ملك سنار بالأمر ، وفر أهالى قرية حبشية عندما هاجمتهم قوات الإمبراطور لتأديبهم إلى أراضى سنار وعندما صفوا مسألتهم مع حاكمهم حجزت سلطات سنار (عائلاتهم) فى بلادها وحجز أهالى سركى

وهى قرية سنارية والدة جوزيف بن جبارة وهى فى طريقها للامبراطور واعل ملك سنار فى تصرفاته هذه كان متأثرا بموقف والده من الإمبراطور والعلاقات الحسنة التى كانت سائدة بينهما مما جعله يظن أنها مقدمة لدخول والده أراضى سنار بمساعدة الإمبراطور لاسترجاع ملكه الذى نحاه عنه أهله الفونج بالقوة . والملك من الأسباب القليلة التى تجعل الخلاف يشتد بين الوالد وولده ورواية أخرى تقول بأن الأب إسحق مبعوث بطريرك الإسكندرية توفى فى إقليم سنار بعد أن احتجز هناك مدة طويلة . وبذلك جهز برميل البارود ولم يبق إلا إشعال الفتيلة . كل هذه الأخبار مستقاة من مصادر حبشية ومن كتابات البرتغاليين كما دونها كروفورد فى كتابه مملكة الفونج فى سنار .

وبدأ غزو حبشى ما بين سنتى ١٦١٨ — ١٦١٩ فى عهد خليفة بادى رباط . بدأت مناوشات على الحدود فى إقليم فازوغلى على الترجيح وكان رد سنار أن بعث الملك باثنين من قواده هما عبد الله وعون الله إلى مدينة سركى لحمايتها وهى ملتقى طرق القوافل التجارية وهاجما قرية Chanqa التابعة للحبشة وقتلا حاكمها محمد سعيد . وما إن علم الإمبراطور بذلك حتى تحرك بنفسه لبلدة باد وبعث بجيشه لبلدة سركى وباغتوها ودحروا قوات الفونج وقتلوا عبد الله إلا أن عون الله تمكن من الهرب . واكتفى الإمبراطور بهذا النصر مؤقتا وربما أرغم على التوقف للوباء الذى انتشر آنذاك .

بعد هذا التوقف المؤقت استأنف هجومه حسب الروايات الحبشية على طول الحدود من أعالى النيل الأزرق إلى التاكة وتوزع جيشه إلى ثلاثة قطاعات . فرقة منه اتجهت نحو دبركى بغرض الوصول لسنار ولكنه لم يصلها ويظهر أنه اكتفى بالغنائم على الحدود . والفرقة الثانية اتجهت إلى جهات القضارف ولم يصلوا إلى نهر عطبرة إلا أنهم تمكنوا من

الرجوع بغنائم من الجمال وثلاثة طبول من زعيم سموه العقيد . وعندما عاود الكرة هرب العقيد بإبله وأغنامه متوغلا فى أراضى سنار ولم يجدوا هذه المرة غير طبل آخر . أما الجيش الثالث المنوط به مهاجمة إقليم التاكا فلم يذكر عنه أنه التقى بعدو أو رجع بغنائم للامبراطور . ونتيجة ذلك كله غنائم وفرار للأهالى ولم يلتقوا بأية قـــوة أرسلت لهم من سنار .

وبعد حين من الوقت تحدثنا رواياتهم عن أن حملة حبشية دبرت متجهة لقبائل بدوية فى السهول وذكرت ملكة تدعى فاطمة ومقرها أروما . والظاهر أن السوق الكبيرة لقبائل نهر عطبرة وإقليم التاكا هى التى جذبتهم إليها . وبعد مسيرة ثمانية أيام وصلوا إلى هدفهم وجمعوا الغنائم إلا أن الملكة هربت . وعندما بعث لها القائد الحبشى يهددها بالبقاء طول الشتاء إن لم تستسلم رجعت وسلمت نفسها له . ورجع بها إلى الإمبراطور ومثلت أمامه وعاتبها على تأخرها فى دفع ضريبتها . وأجابت بأنكم لم تطالبونا بها منذ أمد بعيد وأخضعنا الفونج بقوتهم فامتثلنا لهم وخضعنا لحكمهم . وعطف عليها الإمبراطور لكبر سنها وضعف سمعها واحترمها بأن سمح لها بالجلوس . وأخيراً اتفق معها على معاودة دفع الضريبة السنوية وبذلك رجعت لمقر ملكها . وقد رجح كروفورد أن مقر الملكة فاطمة هو أروما الحالية على خط السكة الحديدية بالقرب من كسلا ورجح الشاطر بصيلى أنها تحكم فى شرق منطقة الميرفاب (بين مصب نهر عطبرة وبربر) . وأنا أستبعد أن يكون مقرها بالمكان الأخير قريباً من النيل .

وانتهت بذلك الحروب الحبشية كما سماها الباحثون ولم تتقابل قوات الدولتين الرئيسية . فمن الناحية الحبشية اعتبروها انتصاراً أما من ناحية سنار فالظاهر أنها لم تحركهم طالما ظلت بعيدة عن وادى النيل وهذا

ما يفسر صمت مصادرهم إزاءها . ويتضح لنا أن ولاء الزعماء على الحدود ظل متردداً بين الحبشة وسنار حسب ذبذبة ميزان القوى بين الدولتين . وكان عهد رباط هذا طويلا إذ امتد إلى ثلاثين سنة تقريباً إلى سنة ١٦٤٥ م حيث خلفه بادى الثانى المعروف بأبى دقن . وفى عهده الذى امتد لأكثر من خمس وثلاثين سنة دون صاحب المخطوطة الكثير من أخباره إذ يقول بعد انتهاء حكم رباط ما يلى :

ثم ملك بعده ابنه بادى أبو دقن المشهور بالشجاعة والكرم .

ويقال إنه كان عرض صدره ثلاثة أشبار . وهو الذى قاتل شلك وهربهم وأسرهم . ثم سار إلى تقلى من بعد ظافره بهم . وسبب قدومه إلى تقلى قيل إن ملكها أخذ من صاحب للملك بادى المذكور مالا . فقالوا هذا صاحب الملك . فقال لما يقطع باجة أم لماع . فلما قدم ذلك الرجل أعلمه أجمع على السفر وأخبر صاحبه أنه إذا دخل باجة أم لماع يخبره بها . فلما دخلوها وعرفوها نزل عن راحلته ونزلت عساكره ومشوا على أقدامهم حتى قال بعض العساكر لذلك الرجل من شدة التعب قل للملك قطعتها . فركب وركبت عساكره وصار يحاصر الجبال ويقتل (منهم) ويسبي حتى وصل إلى ملك تقلى . فحاصره فتحصن منه بحصونه وكان يقاتلهم بالنهار ويرسل لهم الضيافة بالليل فصالحه لأجل ذلك لما رأى من مكارم أخلاقه . وجعل عليه خراجاً معلوما ورجع إلى سنار . وجعل النوبة المأسورين مع بعض أهالى تقلى بعضهم بالشرق وبعضهم بالغرب . وبنوا حلالا دائرة بالإحاطة على سنار كأنها سور عليها .

وكان جلدا كريماً معظما لأهل العلم والدين . وكان يرسل الهدايا مع خبرائه إلى العلماء بمصر وغيرها . وهو الذى مدحه الشيخ عمر المغربى مفتى الجامع الأزهر وغيره من العلماء لما وصلهم بعطاياه الجزيلةمع خبيره

أحمد ولد علوان جد يعقوب ولد أبي بكر . وهو الذى بنى المسجد بعد تأسيس أبيه وجعل له الشباك الذى جاء به الحاج سيد صاحب العيدى . وكذلك بنى قصر الحكومة وجعله خمس طبقات فوق بعضها . وبنى أماكن عدة لوضع مهمات الحكومة من أسلحة وغيرها خلاف بيوت الحريم وخلاف ديوان جلوسه . وله ديوانان اثنان : أحدهما خارج عن القصر الكبير وأحدهما داخل حائط القصر . وجعل على الجميع حائطاً كبيراً محيطاً بذلك وجعل فى الحائط المذكور تسعة أبواب . وعين لكل واحد من كبراء دولته ديواناً مختصاً به يجلس فيه للنظر فيما يتعلق به . فإذا أراد هذا الكبير الدخول إلى ديوان الملك يدخل وحده ليس معه أحد من أتباعه . وأما الباب التاسع فلا يدخل منه أحد ولا يخرج إلا الملك نفسه أو ولد عجيب . وهذه الأبواب كلها تفتح فى حائط واحد مستقيم . وأمام هذه الأبواب سقيفة بعمدان . وفيها دكة عالية تعرف بدكة من ناداك .

ولنقف قليلا عند هذا النص لنشرح ونحقق ونعلق ونستخلص الاتجاهات . فأول خبر هو قتاله لقبيلة الشلك التى تسيطر على النيل الأبيض إلى مكان الكوه الحالية . ونرى حسب الرواية أنه انتصر عليهم فهرب البعض وأسر البعض الآخر . وربما أخذ الأسرى معه لتقوية جيشه أو لخدمته فى الطريق كعبيد . ولا نرى أن تسييره الجيوش لمنطقة جبال النوبة وقيادتها بنفسه كان ردا للإهانة التى لحقت بصديقه فحسب . بل هى حملة مدبرة ذات أغراض توسعية لدولة الفونج . أو ربما لجلب الأسرى وإدخالهم فى سلك جنديته بدليل هذه القرى التى أسكنهم فيها بعد رجوعه بالقرب من سنار : ويؤيد هذا الزعم أن جيمس بروس الرحالة الأسكتلندى الذى مر بسنار فى سنة ١٧٧٣ زار هذه القرى وتحدث إلى أهلها وقال إنها معسكرات جيش الدولة . ومملكة تقلى التى ذكرتها

المخطوطة هى مملكة إسلامية فى جبال النوبة بكردفان وأسست على ما يرجح فى نفس الوقت الذى قامت فيه مملكة الفونج على يد أحد العرب المسلمين من قبائل شمال الخرطوم . ونشر الدين الإسلامى بين رعاياه الوثنيين .

وإكرامه لعلماء الأزهر وعطاياه الجزيلة لهم ماهو إلا استمرار لسياسة الملوك والحكام فى دولة الفونج منذ أن أنشأها عمارة دونقس وبلغت ذروتها فى عهد الشيخ عجيب المانجلك . والقصيدة التى أورد نصها صاحب المخطوطة ونسبها للشيخ عمر المغربى فى مدح بادى وجدها الأستاذ الشاطر منقولة من كتاب ونظمت أصلا لمدح السلطان بايزيد العثمانى وحدث فيها تغيير وتبديل لتتلائم الملك بادى . ولا غرابة أن يبنى بادى مسجدا وهو على ما عرفناه من عظمة وطموح وغيرة إسلامية إلا أن القصر كما وصفته المخطوطة قد احتار فيه كروفورد .

واعتراضه أن الرحالين أمثال بونسيه وكرمب الذين زاروا سنار والأخير قضى فيها نحو سنة كاملة لم يذكروا قصرا بهذه الصفة .

وفى الوقت نفسه فإن المسيو كايو الذى رافق حملة إسماعيل بن محمد على إلى سنار شاهد آثار قصر متداع متعدد الطبقات وأخبره بادى ملك سنار الأخير أن هذه الخرائب هى كل ما بقى من آثار قوة أسلافه . وقد يكون هذا الشك فى محله . ولكن ألا يحتمل أن يقابل الملك هؤلاء الزائرين فى أحد الدواوين التى ذكرتها المخطوطة سواء الذى كان خارج الحائط أو الذى بداخله . والديوان إلى وقتنا الحاضر عادة بناية منفصلة خاصة بالرجال ولا اتصال له ببقية المبانى الداخلية . ويسترعى انتباهنا أيضاً هذه الدكة التى خصصت لأفراد الرعية لإسماع شكاواهم لآذان الملك . وفيها دلالة على أن الملوك كانوا يريدون رفع المظالم عن أى فرد

من أفراد الشعب يقدم شكواه مباشرة للملك بطريقة واضحة دون أن يقف فى طريقهم الحجاب .

وفى عهد بادى أبى ذقن أيضا انفصل الشابقية عن دولة الفونج وأعلنوا استقلالهم . وقصة انفصالهم هذا يرويها و . نكولز فى كتابه « الشابقية » حسب ما استقاها من كبارهم وتتلخص فى أن خارجا على سلطة الشيخ الأمين ودعجيب مانجل العبدلاب وصاحب السيادة على إقليم سنار الشمالى بما فيهم الشابقية التجأ لعثمان زعيم دار الشابقية آنذاك ولم يرض عثمان هذا تسليمة للأمين أو قتله حسب طلبه . وزحف شيخ العبد لاب برجاله على دار الشابقية لتأديبهم . ولجأ عثمان إلى حيلة تجعل قوته تظهر بأكثر من حقيقتها حين كان يدهن خيله بلون خاص ويوردها النهر حيث يراها شيخ العبد لاب على الضفة المقابلة ثم يغير اللون وترد النهر مرة ثانية وهكذا دواليك مرارا عدة . وجازت الحيلة على الأمين ورأى الصلح مع زعيم الشابقية بدلا من المخاطرة بالدخول فى حرب معه وهو بهذه القوة وأرسل إلى عثمان للحضور والمفاوضة معه فى الأمر . وحضر عثمان بمفرده راكبا فرسه وعندما اقترب من الأمين وهو يلعب المنقلة مع رفاقه أشار إلى أحد أتباعه بالقبض على عثمان عندما يصل . غير أن أحد الشابقية وهو فى مجلس الأمين رفع صوته قائلا : « وحياة الرب شرك أم حبيبة فى رقيبتك طب » . وسمعها عثمان وعلم فحواها وهى انج بنفسك قبل أن يقبض الشرك على رقبتك . فأسرع راجعا إلى جزيرته دلقا .

وتشاور عثمان مع قومه واتفقوا على مهاجمة العبدلاب بطريقة مباغتة . وفى بهيم الليل أعدوا عددا من البهائم وربطوا على ظهورها حزما من القش الجاف وساقوها أمامهم فى هدوء وصمت . وعندما قاربوا معسكر العبدلاب أشعلوا النيران فى القش الجاف فجفلت البهائم واقتحمت المعسكر والناس نيام وذعروا وتفرقوا فى الجهات بدون خيلهم وأسلحتهم وكان رجال

عثمان على استعداد بأسلحتهم وقتلوا من أدركوه ونجا من فر . وفرش الأمين فروته وجلس عليها فى انتظار الموت على العادة السودانية عندما يقطع الأمل . ووقف عثمان على رأسه شاهرا سيفه واعدا إياه بالعفو إن هو ضمن له استقلال الشابقية . وما وسع الأمين وهو على هذه الحالة إلا أن يلبى طلبه وعاهده على ذلك . ونتج من ذلك أن كانت طرق القوافل بين قرى ودنقلا تبتعد ما أمكنها ذلك من دار الشابقية وغالبا ما تكون فى حراسة قوية كما لاحظ ذلك الرحالون بعد هذه الحادثة أمثال بونسيه وكرمب .

وبعد موت بادى أبى ذقن تولى الملك من بعده ابن أخيه أونسه ابن ناصر : ولم يذكر فى عهده إلا المجاعة التى عرفت بسنة أم لحم لأن الناس أكلوا لحوم الكلاب ورافقها وباء الجدرى . وفى مثل هذه السنة من الغلاء يمتحن معدن الرجال من الذين يخزنون الذرة ؟ وضرب صاحب المخطوطة مثلا بسليمان ودمسوط الذى كان يمتلك خمسمائة رحل من الذرة وجوهر مولى الخواجه عبد الرحمن ولد قوم وصباحى الشجرابى كل منهما يملك مثل كمية سليمان . « فأرسل إليهما وقال لهما إن الجنة جاءت مجلوبة يعنى تباع . أما صباحى المذكور فحكوا عنه أنه رد عليه وقال أنت سفيه . وأما هو فبذل جهده وكامل ماعنده فى الإنفاق حتى قيل إنه ذات ليلة بعد أن هجعت العيون قدمت له زوجته دجاجة مطبوخة محشوة فلما وضع يده فيها وإذا بامرأة تنادى ياولد مسوط أنا نفساء وجائعة فقام بها إليها فأمسكته زوجته وقالت له نعطيها غيرها فقال لها أنت طالق فخلت سبيله وهو مشهور » .

وهذه الحادثة تقودنا إلى جذور عادة حميدة فى المجتمع السودانى عند العمار الذين لهم إمكانيات أكبر من غيرهم فى إنتاج الذرة الغذاء الرئيسى للناس وهى أنهم عندما يشح المطر وينعدم إنتاج الذرة فى المنطقة أو يقل يخرج هؤلاء العمار المخزون من الذرة فى مخازن أرضية تسمى المطامير ويفرقونه

على الذين لم يكن لديهم مايتقوتون به على أساس المقايضة بأن يسترد منهم محصول السنة القادمة لو من الله عليهم وأنزل عليهم الغيث ليدفن مرة أخرى فى المطامير . ويصور النص أيضا العادة الذميمة من الجشعين الذين يخزنون الذرة لغرض بيعها بأثمان باهظة حين يشتد الغلاء . فمصير الفريق الأول الجنة لما قاموا به من عمل البر لأنهم فى بعض الأحيان يوزعونه دون مقابل للفقراء المدقعين . ومصير الفريق الثانى النار وبئس القرار وهذا تفسير قول ودمسوط لزميليه الجشعين .

وخلف أونسه بادى الأحمر وبدأت فى عهده ظاهرة جديدة لأول مرة حسب الروايات التى دونت ووصلت إلينا وهى محاولة خلع السلطان بالقوة والتآمر . وقد عرفنا عن ملوك سابقين خلعوا عن العرش ولكن بدون حرب وربما بمجلس من كبار الفونج . أما محاولة الشيخ عجيب فهى ضد نظام سيطرة الفونج عامة وليست موجهة خاصة إلى خلع الملك ويقول صاحب المخطوطة « وهو الذى خرج عليه الأمين أرداب وأهلة الفونج ومعهم الشيخ ولد عجيب . وحاربوه وملكوا عليهم ملكا اسمه آركل وأرادوا عزله وجاءوا جميعا لقتاله نحو ألف فارس وهو ما معه إلا خمسة وأربعون فارسا . فقاتلهم وطردهم إلى خور العطشان وقتل الأمين أرداب أمير الفونج ورجع سالما وكان شجاعا مهيبا » . وهذه مؤامرة تمت بين الفونج ومشيخة العبدلاب لاتدلنا الروايات على أسبابها وبواعثها ولكنها تدل على أن هناك مظالم مشتركة بين الفونج والعبدلاب جعلت الفريقين يتحدان سويا لإزالته من الحكم ورشح الجميع أميرا آخر من سلالة الملك والغريب أنه انتصر عليهم بجند قليل جدا حسب هذه الرواية . ويجدر بنا ملاحظة أنه فى بعض الأحيان يشار إلى شيخ العبدلاب بولد عجيب دون ذكر اسمه وسنرجع إلى ذلك حين نناقش آراء جيمس بروس ونظريته عن أصل الفونج .

أما الأحداث الهامة التى جرت فى عهد بادى الأحمر فلم تكن داخلية بل خارجية تتلخص فى تردد بعثات تبشيرية كاثوليكية بين مصر والحبشة متخذين مملكة سنار طريقا لهم وكذلك فى سفارة فرنسية سياسية إلى الحبشة بهذا الطريق أيضا وقد دون بعضهم مشاهداتهم فى بلاد الفونج عند عبورهم لها وبذلك أمدونا بمعلومات عن الحالة فى السودان آنذاك مابين سنتى ١٦٩٨ — ١٧٠٥ م وتتكون هذه البعثات التبشيرية من فريقين كاثوليكيين ربما خصوماته القديمة ودخلا فى سباق نحو الحبشة عن طريق سنار . فالفريق الأول هو الفرنسيسكان ويؤيدهم البابا فى روما والفريق الثانى الجزويت ويؤيدهم ملك فرنسا عن طريق قنصله العام دى ميليت فى مصر .

والفرنسيسكان أسسوا لهذا الغرض بعثة تبشيرية فى بلدة أخميم بمصر سميت ببعثة أخميم والفونج وأثيوبيا . أما فى أثيوبيا فمطامع الكاثوليك فى تحويل كنيسة أثيوبيا من القبطية إلى البابا معروفة منذ محاولات البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر . ولكن آمالهم فى بلاد الفونج هى علمهم بأن سكان بلاد النوبة كانوا مسيحيين قبل دخول العرب فى السودان ثم الرواية التى سمعوها من بعض رجال القوافل التجارية والتى لم تستند إلى أساس فى أن آلافا من الأحباش الكاثوليك فروا من الحبشة نتيجة الاضطهاد والتجئوا لإقليم الفونج .

وبدأ سباق الجزويت تحت تدبير القنصل الفرنسى فى مصر . حيث علم من تركى اسمه حاج على يتردد بين مصر والحبشة فى القوافل التجارية أن إمبراطور الحبشة يريد طبيبا لمعالجة ابنه المريض . والظاهر أن القنصل الفرنسى كان يستخدم رجال القوافل هؤلاء كجواسيس يمدونه بالمعلومات عن بلاد الفونج وعن الأحوال فى الحبشة خاصة . وانتهز هذه الفرصة وأغرى بونسيه أن يكون الطبيب المطلوب وأرسل معه راهبا

من الجزويت يدعى برفدانت . وخلع هذا الأخير لباس الكهنوت وسار الاثنان مع حاج على فى قافلة سودانية .

وما إن علم الفرنسيسكان بهذه البعثة وكانوا يعلمون أغراضها حتى عينوا هم بدورهم جوزيف وباكال للسفر هناك . وتوالى آخرون خاصة من الفرنسيسكان وبدءوا يمارسون نشاطهم فى سنار والحبشة كأطباء . وهذا ماجعل الملوك وكبار القوم فى البلدين يأنسون إليهم ويقدرون لهم هذه الخدمة الإنسانية التى يحتاجون إليها ولا يوجد فى بلديهما أطباء . ولم يكن بعضهم قد درس الطب بتاتا ولكن بالخبرة والتجارب فى بلاد أوروبية كانوا يمثلون الدور . وكانوا يترددون بين الحبشة وسنار ويرجع بعضهم إلى مصر ويأتى غيرهم ويجتمعون فى سنار لتبادل المعلومات ورسم الخطط والتسابق بين الفريقين يجرى فى الخفاء لأن كشف نواياهم إذا اختلفوا سيجر الكارثة على الفريقين . وأثناء هذه المحاولات مات كثير منهم إما فى الحبشة أو فى إقليم سنار وعلى ما يظهر لم يحاولوا تنفيذ سياسة نشر الكاثوليكية واقتصروا على العلاج وهذ ما أزال عنهم أية ريبة .

ولكن السياسة الفرنسية كما نفذها قنصلها دى ميليت فى مصر لم تقتصر على مناصرة الجزويت فى سباقهم نحو الحبشة وبلاد الفونج ضد الفرنسيسكان بل تعدته إلى أهداف سياسية وتجارية فى الحبشة وبذلك لابد من إرسال سفارة رسمية لا مجرد كهنة وقسيس ولعل بعثات الجزويت ورحلة بونسيه الأولى جعلته فى موقف يلم فيه بأحوال البلاد هناك . وعرف أن كثيرا من المرافقين للقوافل كانوا فى خدمته بدليل أن الحاج على الذى أوصاه ملك الحبشة باختيار طبيب من مصر لمعالجة إبنه المريض استشار دى ميليت فى الأمر . وانتهز هذا الفرصة وأغرى بونسية وبرفقته راهب جزويتى كما قدمنا .

وعينت الحكومة الفرنسية — Du roule دى رول سفيراً لها فى الحبشة بهدف بدء علاقات دبلوماسية بين القطرين : وغادر القاهرة فى ١٩ يوليو سنة ١٧٠٤ عن طريق مملكة سنار يحمل عددا كبيرا من الصناديق ملأى بالهدايا للامبراطور وبرفقته خادم ومترجم وعالم فى النباتات وفنان وكلهم فرنسيون . وتعليمات الحكومة الفرنسية لدى رول تختص بالشئون الدينية وبالتجارة خاصة وأنها تود آنذاك إيجاد أسواق خارجية للفائض من منتجاتها . ورأى دى ميليت أن يرسل بعثة بطريق البحر الأحمر تسبق دى رول وتمهد له مكونة من بونسيه الذى سبق له أن زار الحبشة كما قدمنا ومعه شخص يدعى إلياس ولعله لبنانى . ووضع لهما تعليمات يحافظون على سريتها ولا يراها أى مخلوق وإذا استدعى الأمر وتعرضت لخطر الكشف أمر بونسيه بإحراقها . فما هى هذه التعليمات التى ربما تجاوز فيها دى ميليت أهداف حكومته ؟

تتلخص فى أن يؤكد للإمبراطور أن ملك سنار ينوى مهاجمته استعدادا لذلك استورد من مصر معدات وذخائر حربية حديثة بما فيها المدافع . ومن صالح الإمبراطور والحالة هذه أن يتعضد بدولة أوروبية تقوى مركزه إزاء هذا الاعتداء المرتقب . وحذر الإمبراطور من سيطرة رجال الدين فى بلاده وأن من تبعثهم فرنسا له لا علاقة لهم البتة بالشئون الدينية وهم خبراء فى نواحى مختلفة ودى رول بالذات رجل حرب . وأن ملك فرنسا يعطف على أخ له فى الدين ينحدر من صلب سليمان . والسفير القادم إليه فى استطاعته أن يحمل الكثير معه ولكنهم لا يريدون أن يثيروا مخاوف ملك سنار . وتعليمات إلياس تختص بالشئون الدينية وكتابة كتاب عن الحبشة . وفى خطابات دى ميليت لملك سنار ووزيره على صغير أشاد دى ميليت بعظمة فرنسا الحربية وبعدها عن القاهرة ووفرة خيراتها لأن كل شىء فى هذا الكون يوجد بها .

ومضى دى رول بحاشيته حاملا معه ذلك العدد الضخم من الهدايا حتى وصل سنار . وحط رحاله بها ولا نعلم التاريخ الذى وصلها فيه ولكنه قبل ١٨ يونيو ١٧٠٥ م وهذا تاريخ خطاب بعث به دى رول من سنار ولكنه لم يصل إلى دى ميليت بنصه بل نقل ملخصه راهب قرأ الخطاب . يروى دى رول مقابلته للملك فى سنار ويمتدح الوزير أحمد سيد القوم وكان هناك شعور بأن (عفش) دى رول يحوى عشرين صندوقا مليئة بالنقود . وأخبر الوزير دى رول أنه تلقى خطابات من القاهرة مختومة ومعضاة من شخصيات لها اعتبارها هناك تتهمه (دى رول) بأن مهمته إغراء إمبراطور الحبشة للاستيلاء على ميناءى مصوع وسواكن وبمهاجمة الأتراك بالاشتراك مع الفرنسيين وهذا ما أزعج دى رول . ومع ذلك فالوزير يعتبر هذه الخطابات مزورة واحتجز دى رول مدة طويلة ومنع من السفر وأخيرا قتل فى سنار .

وبدأ دى ميليت يجمع المعلومات عن مقتله ممن ادعوا أنهم شاهدوا مقتله ومن رجال القوافل الآتية من سنار ومن مصادر أخرى متفرقة . وتبين من خطاب دى رول السابق الذى نقل ملخصه أنه شعر بالقلق على حياته فى سنار وقال إنه لم ير شعبا أكثر همجية من هؤلاء النوبيين ونصح لدى ميليت أن يسرح من خدمته كل الذين يخدمونه منهم . ونستطيع أن نربط بين هذه الخطابات التى تشير إلى هدف بعثة دى رول وأقلها خطورة على سنار هو استيلاء الأحباش على ميناء سواكن وشعور الناس بأنه يحمل عشرين صندوقا من النقود وبين هذا القلق الذى بدأ يشعر به ويحسه فالرابطة ظاهرة . فهذا أجنبى يحمل رسالة سرية إلى الحبشة فيها خطورة على الدولة ومعه كمية كبيرة من النقود يريد أن يغادر مدينة سنار لإبلاغ المهمة إلى إمبراطور الحبشة ولوضع هذه الكمية من النقود بين يديه إعانة وتقوية له . فلا غرابة إذا ما احتجز وعندما أصر على السفر وقعت مناوشات وقتل .

ومن المعلومات التي تجمعت لدى ميليت نعرف أن الملك طلب نقودا من دى رول . ورفض وأنه قام بألعاب نارية في مناسبة الاحتفال بانتصاره وعدت هذه من أعمال السحر حيث احتبس المطر عن النزول . ويرى دى ميليت أن دى رول لو رشا الوزراء ورجال البلاط لدافعوا عنه وتركوه يسير في مهمته . وبدأت التهم تنهال على من كتب هذه الخطابات لملك سنار فبعضهم يتهم قداسة بطريرك الأقباط لأن في امتداد نفوذ فرنسا والكاثوليك في الحبشة خطورة على ولاء الكنيسة الحبشية له وأنه سبق ذلك محاولات عدة في هذا الصدد . ويتهم بعضهم جماعة الفرانسيسكان المناوئة للجزويت وهم تحت حماية فرنسا .

وعند ما رأى دى ميليت أن أحلامه وأحلام دولته تحطمت بمقتل دى رول وفي ثورة من الغضب قام بأعمال سخيفة . منها أنه اتهم إمبراطور الحبشة بأنه هو الذى كتب لملك سنار بقتل دى رول . ومنها أنه حاول استعداء الأتراك على ملك سنار ففي خطاب بعث به في ٣٠ نوفمبر ١٧٠٦ إلى باشا سواكن واسمه عمر اقترح أن يعترف بشيخ العبد لاب في قرى على أنه ملك سنار الحقيق مما يجعل ملك سنار يرجع بضائع ومتعلقات دى رول المنهوبة . وإذا لم يفعل تخنق تجارة سنار في سواكن بإقفالها في وجوههم . وهذا الإجراء سيجعل ملك سنار يرجع إلى الصواب . فإذا ما قام الباشا بهذه العملية فللباشا هدية عظيمة من ملك فرنسا . وهذه هي نفس الأساليب التي استخدمها الاستعمار فيما بعد ولا زال يستخدمها . وهي استعداء فريق على آخر وإرهاب وتهديد واحتكار لأسواق ووعد بمكافآت سخية مجزية إن قام شخص أو مجموعة بعملية تخريبية .

وصف الحالة فى إقليم سنار

والحرب الحبشية

لنقف قليلا ونعطى صورة للأحوال فى مملكة سنار فى أوائل القرن الثامن عشر كما وصفها بونسيه وكرمب والمعلومات التى وردت فى خطابات برفدند وتحقيقات مسيو دى ميليت القنصل الفرنسى فى مصر . ومنهم نعلم أن الطريق التجارى بين مصر والسودان يبدأ من قرية مشو فى دنقلا إلى دنقلة العجوز لكورتى فدريرة على النيل بالضفة الغربية شمالى قرى ثم قرى بالضفة الشرقية وهى مقر المانجل رعيم العبد لاب ووكيل ملك سنار على المنطقة من أريجى شمالا إلى مشو . ومنها ذكروا الحلفاية والعيلفون وكترانج والكاملين(شرق) . وعلى الضفة الغربية للنيل الأزرق ذكروا البشاقرة (شرق وغرب) وأبو عشر وأريجى ثم سنار . وتبدت لهم المنطقة من مشو جنوبا عامرة متصلة العمران ولكن عند اقترابهم من دنقلا العجوز تبدو مقفرة قليلة السكان ودنقلا نفسها حسب ما وصفوها تقترب من نهايتها لأن معظم المنازل مهجورة وطغت عليها رمال الصحراء وردمت بعضها . ولاحظوا آثار الكنائس والأديرة وعلموا من الأهلين أنها كانت لسكان المنطقة الذين كانوا على دين النصرانية وتحسر أحد القسس على ذلك العهد واغرورقت عيناه بالدموع .

والدبة عرفت بأنها مقر لخلاوى القرآن وتلاوته . وكورتى وصفها بعضهم بأنها أجمل قرية كبيرة فى أرض النوبة . والمسافة عبر صحراء بيوضة من كورتى إلى دريرا على النيل تقطعها القافلة فى خمسة أيام . وتسير القافلة محاذية للنيل من دريرا إلى أن تصل قبالة قرى بالغرب . ويرتاح المسافرون وجمال القافلة لهذا التغيير فالأرض مخضرة ويمدهم الأعراب الذين يسكنون

فى المنطقة فى خيامهم وبيوت القصب والبروش بكل ما يريدونه من لحوم وألبان حتى أطلق المسافرون على ما يبدو على هذه الأرض عند خروجهم من الصحراء « بلاد الله » . ويجب على كل قافلة أن تتوقف بالشاطئ الغربى قبل عبور النيل إلى قرى للتأكد من أن رجال القافلة لم يكن من بينهم من هو مصاب بالجدرى . وإذا استدعى الأمر يحجزون لمدة معلومة . وفى قرى تستوفى منهم الجمارك . ولاحظ أحدهم المساكن جنوبى قرى على أن معظمها قطاطى . وبالمنطقة مزارع وأشجار .

والحلفاية مدينة عامرة بعض بيوتها مبنى بالحجر .

ووصفت أربجى بأنها مدينة كبيرة ولكنها قليلة السكان . ويظهر أنها كانت أكبر سوق وملتقى القوافل قبل أن تستقر العاصمة فى سنار . وعندما زاد عمران الأخيرة واستقر ملوك الفونج بها جذبت إليها التجار وصارت محط رحال القوافل وصارت أربجى نقطة فى طريق القوافل تعبرها إلى شرقى النيل الأزرق . وهذا مما أدى إلى تدهورها التدريجى حتى تم خرابها أخيراً وانتقل كثير من سكانها إلى المسلمية . أما سنار فوصفت بأنها أكبر مدينة بعد القاهرة ويبلغ عدد سكانها نحو ١٠٠ ألف نسمة على وجه التقريب . والحرية مكفولة فيها لكل الأجناس والأديان ويمدنا هؤلاء المبشرون بدليل من أنفسهم حيث كانت فى هذه الفترة مركزاً لمؤتمرات تعقد من بينهم وربما حيكت مؤامرات هناك دون تدخل من السلطات . وقصة مقتل دى رول لها دوافع واتهامات وخطابات وردت من الخارج ثم ضخامة ما كان يحمله من هدايا لإمبراطور الحبشة وإشاعة المبلغ الكبير من النقود معه . ولولا ذلك لمضى فى طريقه مثل من سبقوه وعرفت سنار باتصالاتها التجارية مع بلاد النوبة ومصر ومع الحجاز والهند والحبشة ودارفور وبرنو وفيزان . وفى سوقها تجد البضائع المستوردة والمنتجات المحلية وبها سوق للرقيق .

ويظهر لنا الرحالون اهتمام ملوك سنار ووكلائهم المنبثين على طول الطريق بهذه القوافل . وفى المناطق الخطرة يمدونها بحراسة قوية وخاصة فى صحراء بيوضة خوفاً من هجمات الشايقية عليها وقد تم استقلالهم من سلطة العبد لاب وبالتالى من سنار قبل ذلك . والتسامح مع الغريب والحرية التى تعطى له حتى ولو كان غير مسلم التى ذكروها عن سنار أيدوها بحادثة أخرى وقعت فى دنقلا . وهى أن بونسيه عندما لعبت الخمر برأسه دخل فى مجادلة وهو فى مجلس ملك الجهة وحاشيته بين المسيحية والإسلام وأسهب فى حديثه رافعاً من شأن المسيحية وحدثت مشادة بينه وبين خبير القافلة إلا أن تدخل الملك أنهى المجادلة واستمر الجميع فى سمرهم كأن لم يحدث شيء . فحادثة كهذه رواها مبشرون (ولو أنهم كانوا متنكرين) فى بلاد إسلامية فى ذلك الوقت تظهر لنا تسامح السكان بالرغم من تمسكهم الشديد بدينهم . وبمناسبة هذه الحادثة يذكرون لنا أن ملوك الجهات وخاصة فى إقليم دنقلا يدعون رجال القافلة إلى موائدهم مرات عدة ويبالغون فى إكرامهم . وفى سنار خاصة تفرد لهم بيوت لسكناهم ويرسل لهم السمن والعسل والخراف والثيران لإطعامهم ويشرف على راحتهم وحمايتهم وزير من البلاط الملكى . وفى قرى يصف لنا كرمب مائدة المانجل وهم يتناولون الكسرة بالمرق وعليها قطع اللحم من قدح العود بأيديهم . وقد غلط كروفورد وقال إن هذا الذى يصفه كرمب هو شراب الآبرى .

وكتابات بونسيه وكرمب تصف لنا استقبالات الملك بونسيه ورفيقه فى (سرايه) ثانى يوم وصولها سنار ووصفه بأن سنه نحو ١٩ ولونه أسود ولكن ليست به تقاطيع زنجية ومنظره مهيب وتحلق حوله عشرون من رجال الدولة كبار السن . وقدم بونسيه هدايا مكونة من بللورات وتحف أوروبيه أخرى وتقبلها شاكرا . وبعد حديث وجه الملك فيه بعض

الأسئلة مما يدل على أنه يتحلى بصفة حب الاستطلاع . وانفض المجلس ورجعوا إلى منازل ضيافتهم . ولم يذكر كروفورد وصف الاستقبال فى تلخيصه لرحلة بونسيه إلا أن الأستاذ الشاطر بصيلى لم يغفلها حيث أوردها فيما يلى : « ذكر بونسيه أنه قد ذهب فى اليوم التالى لوصوله إلى مدينة سنار لمقابلة السلطان فى ديوانه الرسمى وأوضح المراسيم التى تراعى فى مثل هذه المناسبات وذلك بأن يخلع الداخل حذاءه عند باب ديوان متسع اصطفت على جوانبه جنود من حملة الرماح ويقف الداخل عند حجر بالقرب من باب ديوان اعتاد السلطان أن يجلس فيه لمقابلة البعثات الأجنبية . وبعد أداء التحية وفق العادة المتبعة وهى الركوع وتقبيل الأرض ينقل الوزير الواقف بالقرب من السلطان التحية ويحمل رد السلطان عليها . ويقول بونسيه إن السلطان كان جالسا على سرير فاخر ويرتدى معطفا موشى بالذهب ومتمنطقا بحزام من قماش وعلى رأسه عمامة بيضاء وحوله عشرون من كبار رجال الدولة » .

وصف بونسيه خروج الملك يومى السبت والأربعاء فى موكب استعراضى خارج سنار لمقره الريفى ويتناول طعام الغذاء هناك . يتقدم الموكب مابين ٣٠٠ و ٤٠٠ من الفرسان ويتلوهم الملك نفسه على فرسه وحوله حرس من المشاة وراءهم نحو ٨٠٠ من خدمه الإناث يحملن ما يسمى المندولات (نوع من السلال زاهية الألوان وعليها أغطية هرمية الشكل من نوعها) بها أطباق النحاس مليئة بالأطعمة من لحوم وفواكه . ويلى ذلك ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فارس . وعندما يصل الركب يجلس الملك وحوله رجال الدولة ويتناولون طعام الغداء ويتناول كذلك أفراد الركب جميعهم الغداء من هذه الأطعمة التى حملتها الخادمات . وبعد رياضة يتبارون فيها بالرماية بالبنادق التى بدءوا يستخدمون بعضها يرجع الموكب إلى العاصمة بنفس الترتيب السابق . وفى الأيام الأخرى يعقد الملك مجلسه

فى الصباح والمساء . ويباشر الإدارة والمحاكمات لأنه لايترك جريمة بلا عقاب . والعادة المتبعة هى أن يؤتى بالمتهم أمام المجلس ويتحرى معه القاضى فإذا ما ثبتت التهمة عليه ينفذ حكم الإعدام فى الحال بأن يضرب فى الساحة العامة بالعصى الغليظة حتى يموت : وعند ما يموت الملك أو يخلع ينعقد مجلس من كبار الفونج يختارون ملكا للعرش بطقوس تقليدية ورثوها عن آبائهم ويقتل كل إخوان[1] الملك المختار حتى لا تحدث أحدهم نفسه بالثورة عليه .

وصف لنا كرمب عند ما كان بسنار استقبال شيخ العبد لاب عند ما حضر لسنار فى ركب عظيم ومعه مئات من العبيد والجمال والخيل ومبلغ من المال كجزية يدفعها للملك . وبدأت مراسيم الاستقبال بأن خرج الملك فى موكب يتألف من نحو مائة من الحاشية بعضهم مشائخ وبعضهم فرسان يتلوهم عدد مماثل من المشاة هم عبيد الملك ويحملون الرماح . وعند ما تقابل الموكبان خارج المدينة ترجل مانجل العبد لاب عن فرسه ولثم رجل الملك وهو على فرسه وعندها أشار عليه الملك بالركوب . ودخل الموكبان المدينة تتقدمه نحو ٣٠٠ من خادمات الملك وهن يحملن المباخر ويضعن عليها من وقت لآخر الصندل واللبان وغيرهما من العطور حيث يفوح عبيرها فى الجو وتتعالى أصواتهن بالغناء والزغاريد . ويقف الناس يشاهدون الموكب حين دخوله المدينة وتزغرد النساء إلى أن يصل إلى الساحة العامة . ينفصل كل موكب إلى جهة ويصطف كل فريق ويدخل فى معركة صورية ضد الفريق الآخر ويطلق أصحاب البنادق العيارات النارية استبشارا وفرحا .

وكرمب يصف لنا الاستقبالات والمحاكم وسلطة مانجل العبد لاب فى قرى لأنه أرسل بالقوة لقرى لمعالجة المانجل وبقى هناك نحو ثلاثة أشهر . وصل كرمب إلى قرى ومعه مندوب من قبل ملك سنار يحمل

(١) لعل المقصود إخوة الملك (مصححه) .

خطابا للمانجل . وما إن دخل ركبهم القرية حتى تعالت زغاريد النساء ويظهر أن هذه تحية معتادة لركب يحضر من سنار . ودخلوا على المانجل فيما سماه (بسرايه)حيث وجده جالسا على دكة مرتفعة وعليها برش زاهى الألوان وأربعة رجال يضربون النحاس .

ويرتدى المانجل قميصا نصفه من الحرير يجمع بين اللونين الأحمر والأزرق يصل إلى قدميه ولكنه بدون أكمام . ويتمنطق فى وسطه بحزام من الحرير (أزرق وأبيض) وعلى رأسه طاقية من الحرير متعددة الألوان ومطرزة بالذهب والفضة . ويجلس حول المانجل أربعون من رجاله يلبسون أردية من الحرير الخفيف . ويحف بالجميع خمسون من عبيد المانجل يحملون الرماح . وهذا القميص عديم الأكمام الذى يلبسه المانجل وقبل ذلك ذكروا عن ملك دنقلا أنه يلبس مثل هذا القميص . لعله الثوب (أبو عكاكيز) المنسوج محليا من خيوط القطن وبعضها يضاف إليه خيوط من الحرير بألوان مختارة تفصل ما بين خيوط القطن . حتى أن الثوب يظهر فى شكل أشرطة عريضة واحد من الحرير والآخر من القطن . ويلبس أحيانا بدون قميص فى الحر وإن زيارة كرمب لقرى كانت فى صباح ٢٢ يوليو .

وقدم مرسال (مراسلة) الملك الخطاب إلى المانجل الذى وضعه على رأسه أولا ثم أشار إلى كاتبه بأن يفضه ويقرأه على الجميع . وعند الانتهاء سجد المانجل وسجد معه الآخرون ولمست جباههم الأرض مراراً عدة وبعد تقديم القهوة أمر المانجل بأن يرتاح كرمب فى منزل على داود وبعد الراحة أرسلت الضيافه المكونة من باطية سمن وقربة عسل ومقدار من القمح وخروف ومعهما عبد يخدمه . ووصف كرمب استقبالات المانجل اليومية فى المساء . يقود رئيس التشريفات حاملا عصا طويلة المستقبلين الواحد بعد الآخر للسلام على الشيخ مخاطباً أياه « مانجل أنا على » .

ويردد الشيخ الإسم قائلا « علي » وأثناء ذلك يضرب النحاس باستمرار . وبعد هذه المراسيم يتبارى الناس أمام المانجل فى مبارزات صورية بالسيف والعصا . ولعلها تدريبات عسكرية يتعود عليها الناس حتى إذا ما خرجوا للحرب كانوا على استعداد لها . ولم ير كرمب أثراً لمجلس يعاون المانجل كما شاهد فى سنار . ومن هـذا استنتج أن سلطته مطلقة . وأثناء إقامته حضر مراسلة من جيش العبد لاب الذى كان يقاتل فى تلال البحر الأحمر لينبئه بأن النصر تم لهم وأن العدو يطلب الصلح .

وحضر كرمب أيضاً مراسيم تعيين عبد للمانجل شيخا لقرية . استقبل المرشح فى حضرة المانجل واستمع إلى خطاب يعـدد خدماته ثم سلم اليه قميصا حريرياً وملفحة وسيفا دليل تسلمه لأجهزة السلطة . وعندها سجد الشيخ المعين كالعادة دليل الولاء والخضوع ونهض بعدها ليعرض بالسيف ثم ينادى أحـد الحاضرين ليقف ويخاطبه ويخاطب الحاضرين بما معناه « أمانة عليكم ألم يكن شيخنا (يعنى المانجل) أشجع وأغنى وأعدل الجميع ؟» وغير ذلك من الصفات الكاملة التى يضفيها عليه . وهذه المراسيم فى الاستقبال والتولية لا تزال باقية إلى الآن عند مشائخ الدين أصحاب الطرق الصوفية بشكل من الأشكال مما يدل على أنها انتقلت إليهم من مراسيم الملوك والحـكام . وحتى فى عهد الشيخ عجيب المانجلك وصف لنا صاحب الطبقات استقبال الشيخ حسن ولد حسونه بما لا يختلف عن هذا كثيرا .

ولعل أطرف ما شاهده كرمب هو محكمة المانجل التى تعقد فى حضرته ومعه كبار رجال دولته . يختار الشاكى والمدعى عليه كل منهما محاميه من بين الحضور . يخبر الشاكى محاميه بالقضية وهذا يعرضها ويرد المدعى عليه بأنه غير مذنب . ثم يترافع كل محام عن جانبه الذى وكله . وقد يشترك بعض الحاضرين فى المناقشة مؤيدين أو معارضين أحد المتخاصمين وأثناء

ذلك ينصت المانجل وقد استوفت القضية الشرح وتقديم الأدلة من الجانبين سواء من المحامين أو من الحاضرين الذين اشتركوا فى المناقشة . وعند الانتهاء يصدر حكمه الذى لا استئناف بعده . وفى هذه المحاكمة بالذات أصدر حكمه على أحد المتخاصمين بالضرب حيث تناول الحاضرون عصيهم وانهالوا عليه ضرباً حتى أمر المانجل بالتوقف . ولعل لفظة « متلقى الحج » التى يطلقها بعض السودانيين على المحامين الآن تعود بجذورها إلى ذلك العهد لأنه يتلقى من أحد المتخاصمين الحجة نيابة عنه . وهذه الصورة من المحاكمة تبين لنا مستوى العدالة عن طريق العرف والعادة آنذاك .

وهكذا بفضل مادونه الرحالون وضحت لنا صورة المجتمع ونظمه وطرق اتصاله بمصر فى دولة الفونج فى أوائل القرن الثامن عشر ، بعد أن كانت غامضة عند نشأتها قبل قرنين من الزمان . ويتضح لنا أن هؤلاء النصارى اختاروا الطريق إلى الحبشة عبر دولة الفونج لأنهم وجدوا فيه أمناً واستقرارا وتسامحاً مع الذين يدينون بغير الإسلام والأدلة على ذلك هى الحرص على سلامتهم بمرافقة قوة من الحرس الرسمى للقوافل فى الأماكن الخطرة وبدخولهم فى مجادلات دينية دون أن ينالهم أذى وبوصف سنار أنها مدينة مفتوحة لكل الأديان والأجناس يتمتع فيها الفرد بكامل حريته . والحكم فى سنار بين أسرة الفونج فيه شورى محدودة بدليل ذلك المجلس من كبارهم الذى يسيطر على اختيار المرشح عندما يخلو العرش بطقوس وتقاليد خاصة . وتدخلهم عندما يتبين لهم أن الملك لم يكن على صواب فى مسلكه وخلعه إذا استدعى الحال بالقوة بمساعدة جنود لولو الموطن الأول للأسرة الفونجية . ومانجل العبد لاب يختاره ملك سنار من بين ذرية مؤسس الأسرة عبد الله جماع ليكون وكيلا للملك على المنطقة التى تمتد من أربجى شمالا إلى الحدود المصرية . وهو بدوره

ينصب مشايخ القبائل والمناطق التى تقع تحت نفوذه بطقوس خاصة .

خلف بادى الأحمر الذى شاهد عهده تدفق هؤلاء المبشرين ابنه أو نسه الثالث حوالى ٧١٦ ولم يقم على العرش سوى ثلاث سنوات على وجه التقريب خلع بعدها نظراً لتهتكه ومسلكه الأخلاقى المشين حيث حضرت جنود لولو من الصعيد ومارست إقصاءه عن العرش . وكان آخر سلالة بيت الملك الأصلى . ولأن المناسبة التى خلع بها هى التهتك والاستهتار . ولم يجدوا من عائلة الفونج الأصلية شخصاً له الكفاءة لتولى الملك ، اختاروا هذه المرة رجلا عاقلا مسنا عادلا ولكنه يتصل ببيت الملك بالرحم عن طريق أمه . وبقى فى الملك أكثر من أربع سنين واشتهر بعدله واستقامته وهو الملك نول . وفى حوالى سنة ١٧٢٠ م تم اختيار ابنه بادى الرابع المعروف بأبى شلوخ . واستمر حكمه نحو ٣٨ سنة حدثت أثناءها حرب مع الحبشة وغزو لمقاطعة كردفان حيث ضمت لدولة الفونج وكانت نهايته أخيراً الخلع وتولى الهمج زمام السلطة الحقيقية تاركين للملوك المظهر والأسم كما فعل الجند الأتراك بخلفاء العباسيين بعد المتوكل .

وبدأت مقدمات الحرب بين سنار والحبشة فى فبراير سنة ١٧٤٣ فى عهد الامبراطور اياسو الثانى (Yasous II...) وبدا لبعض الباحثين أن يربط بين هذه الحرب ومقتل دى رول السفير الفرنسى لدى بلاط الحبشة فى سنار . ولكن الزمن بين الحادثتين كبير كما نرى . واكتفى الامبراطور تكلا هيمانوت عندما تأكد من مقتل دى رول بأن أرسل خطابا لباشا وأمراء كبار القوم الذين يحكمون مدينة القاهرة العظيمة مهدداً أياهم بتحويل مياه النيل عن مجراها الطبعى حتى لاتصل إليهم متهماً أياهم بخرق القوانين الدولية عندما قبضوا على دى رول فى سنار . ولعله كان يعتقد أن مقتل دى رول تم بمؤامرة من حكومة القاهرة . وبدأت الحرب

كالعادة باعتداءات قام بها الأحباش على الحدود فر على أثرها الأهلون . ثم قام الامبراطور باعتداء ثان كانت نتيجته عقد صلح بين الأحباش وزعيم المنطقة الذى وعد بدفع جزية لهم .

وفى ٨ مارس ١٧٤٤ تحرك الامبراطور من غندار بجيشه غازيا مملكة سنار وتغلغل فى بلاد الفونج مصدرا أوامره بحرق القرى وقتل الرجال وامتلاك مايجدونه من أبل وماشية . وبعد ثمانية أيام أحرزوا نصراً كبيراً كما دون سجل حوادثهم مابين ١٨ و ٢٤ مارس . وحسب رواية بروس التى دونها عندما زار الحبشة فيما بعد كان أكبر القواد بعد الملك الراس ولد لول خاله . وفى الطريق انضم إليهم فريق من العرب تحت زعامة نايل ود عجيب وفى المرحلة الأخيرة صوب سنار تقدم فريق من الجيش وبقى فريق آخر مع الملك فى المؤخرة وبذلك انفصل قسمين . ولعل الملك يريد أن يدخل سنار فاتحا بعد أن تقوم مقدمة الجيش بالاصطدام الأول . هذا وصف لما دونته سجلات الجانب الحبشى وما كتبه بروس بعد ذلك كما استقاه من مصادر مختلفة . أما الجانب السنارى فيروى فى مخطوطة الشيخ أحمد كاتب الشونة ومن مصادر أخرى محلية ولا ينتظر أن يدون الأحباش تفاصيل الهزيمة النكراء التى حلت بجيشهم .

وهاك مادونته المخطوطة الأصلية للشيخ أحمد عندما أصبحت جيوش الأحباش على مقربة من سنار شرقى النيل الأزرق . « فلما سمع الملك بادى بذلك طلب من جميع المراتب الدعاء وأرسل إلى المراتب البعيدين واشتد الكرب على المسلمين وأقبلوا على الله بالدعوات وتضرعوا إليه بالعبرات فأجابهم من يجيب المضطر إذا دعاه . وأهل لنصرتهم ذلك الملك بادى . فجيش جيشه وأمر عليهم الأمين ومعهم مقاديم جماعة وفرسان مشهورون بالفروسية فقطعوا البحر إلى الشرق إلى السلطان خميس سلطان فور . واجتمعوا وساروا فتلاقوا مع السلطان أياسو قرب ميمونة وعجيب

بالدندر . ويقال بمحل يقال له الزكيات . فقاتلوا مع بعض عسكر أياسو وهو جالس فى خيمته ومعه وزيره وخاله ولدا للولى وهو فى حكم السطيح راقد على سرير . فهزم الله تعالى عسكر أياسو وهم يمشون على مهلهم ولم يطردهم . وهذا أمر من الله تعالى ومعونة منه وتأييدا للاسلام ولطف بالمسلمين والحمد لله رب العالمين . وفرح الملك بادى وأهل سنار ووفوا بنذورهم وعملوا الموالد وذبحوا الولائم ونشروا الحرير وزينوا المسجد والسوق سبعة أيام . وسمع سلطان الروم (الأتراك) بذلك ففرح بنصرة الإسلام والدين . وتلك الواقعة فى شهر صفر الخير سنة ١١٥٧ هـ (مارس ابريل ١٨٤٤ م) .

وروح هذا النص يدلنا على أن النضال أخذ قالبا دينياً بدليل أن الأولياء والصالحين فى كافة أنحاء المملكة توجهوا بالدعاء لنصرة الإسلام وأن خليفة المسلمين فى استانبول ابتهج عندما سمع بهذا النصر وأن الناس أوفوا بنذورهم وعقدوا حلقات الدعاء وإقامة الموالد . واتخذ النضال أيضاً جانباً قومياً بدليل اشتراك الشيخ الأمين ود مسمار مانجل العبد لاب آنذاك وعقد له لواء قيادة الجيش . واعتقد الناس أن هذا النصر هو فتح من الله واستجابة لدعائهم وتضرعاتهم حتى أن قائدهم ولد لول كان راقداً لم يتحرك وعساكر الأحباش تمشى على مهلها كأنها مقيدة بقوة الرهبة . وهذا دليل آخر إن كنا فى حاجة لذلك على تغلغل الروح الدينية واعتقاد الناس فى الأولياء والصالحين . وتم النصر على مايبدو من انقسام جيش الأحباش إلى فريقين مما مكن الأمير خميس وهو أمير من دارفور التجأ لسنار من تنفيذ خطته الرامية إلى أن يعبر فريق من جيش سنار إلى الضفة الشرقية للنيل الأزرق خلسة دون أن يعلم به الأحباش وحصر فريق الجيش الحبشى بقيادة ولد لول فى زواية التقاء الدندر بالنيل الأزرق . وكان قبلها قرر الملك إخــــلاء سنار وتركها للأحباش عندما رأى التفوق العددى لهم .

وعندما انهزم الجيش الرئيسي وولت فلوله الأدبار تراجع ذلك الفريق الذي يقوده الامبراطور نفسه وفر هاربا وتركوا بعض عتادهم الحربي من مدافع وبنادق والتاج وبعض أدوات الحكم ومنها ماله أهمية دينية وقد أرجعت هذه الأخيرة فيما بعد بعد أن دفع الأحباش مبلغا من المال نظير استرجاعها . وبذل أياسو محاولات أخرى للاعتداء على أرض الفونج ولكنها باءت بالفشل وكانت هذه آخر محاولة جادة من الجانب الحبشي لغزو السودان ولم تبذل محاولة أخرى جادة إلى اليوم . وفي العصور القديمة قبل الميلاد دخل إيزانا ملك أكسوم السودان وقضى على حضارة مروى القديمة في منطقة الجعليين الحالية مما يدل على أن الغزو من تلك الجهة الشمالية في السودان فيه أمل بالنصر أكثر من الهجوم على سنار حيث يقف النيل الأزرق سدا أمام الجيش المهاجم . وحتى إن احتل سنار تستطيع الجيوش أن تتجمع غرب وشمال وجنوب سنار مرة أخرى لتدخل في معارك أخرى مع الجيش المحتل . أما في الشمال فأى نقطة على النيل يحتلها الجيش الغازي تضعه في مركز استراتيجي ممتاز لأن الصحارى غرب وشرق النيل تمنع تجمعات محلية بأعداد كبيرة .

ونجت سنار من هذا الغزو الحبشي الخطر بفضل تضافر كل القوى لرد العدوان . وفي هذا دلالة واضحة على أن تجميع كل القوى على مستوى عال من الحماسة القومية هو أقوى الأسلحة في الحفاظ على الوحدة وأرض الوطن . وفي عهد بادي الأحمر هذا تطورت الأحداث إلى غزو لكردفان ثم إلى نهاية سيطرة الفونج الفعلية وانتقال السلطة إلى الهمج كما سنبينه فيما بعد

تغلب الهمج على ملك سنار

بعد الانتصار العظيم الذى أحرزته دولة سنار على جيش الحبشة تحت قيادة الإمبراطور نفسه وبعد نجاة البلاد من هذه الكارثة تنتقل الحوادث إلى كردفان حيث سار جيش عظيم من سنار بقيادة الوزير ود تومه ومعه جيش من العبدلاب تحت قيادة أمرائهم وكان الشيخ محمد أبو لكيلك من مقاديم (رؤساء الخيالة) ود تومه واشترك فى الحرب الحبشية . ولم يتبين لنا الهدف الذى أرسل من أجله هذا الجيش لغزو كردفان . وكان يحكم كردفان آنذاك هاشم من قبيلة المسبعات وأصلها من دارفور . رجح بعض الباحثين أن خميس الفوراوى الملتجىء لسنار والذى كانت خطته فى محاربة جيش الأحباش سبب النصر وراء تسيير جيش سنار لكردفان وربما لدارفور أخيرا . وله مصلحة فى ذلك لأنه طرد من هناك وله آمال فى الرجوع لبلاده إذا ما كانت لسنار السيادة على تلك الأقاليم . ولكنه سبب مرجح وليست هناك أدلة لذلك .

ولنستمع الآن لما ذكرته مخطوطة الشيخ أحمد الأصلية عن القتال بين جيش سنار والمسبعات ودور الشيخ محمد أبى لكيلك فيها مما أدى أخيراً إلى تسلمه السلطة الفعلية فى دولة سنار ولنرجع إن شاء الله إلى ذكر ابتداء أمر الشيخ محمد أبى لكيلك وسيرتهم وتغلبهم على الفنج . ومما قيل أن الشيخ محمد أبى لكيلك المذكور ابن بادى بن كتوا . وكان من عادتهم أنهم يسمون شياخ . فلما كبر الشيخ محمد ونشأ وكان له فراسة ونجابة . وكان له سعد لائح وهو تابع للشيخ محمد ولد تومه من أهل جند توت وزير الملك وكان هو من جملة أتباعه . فجهز الملك بادى الحربة ليقصد قتال مسبعات وفى رأسها ولد تومة وبعث معه من أولاد عجيب الشيخ عبد الله وشمام والأمير على الحربة حينئذ ولد تومة فاقتتلوا بقحيف وقتل ولد تومة

والشيخ عبد الله وانهزمت حربة الملك ووقف الشيخ محمد ومعه بادى ولد رجب وعدلان ولد صباحى وسلم حربة الملك من التلف. ثم التقيا بمحل يعرف بشمقتا فاقتتلوا وقتل شمام ولد عجيب وانهزمت الحربة وصبر الشيخ محمد المذكور. ومنع الطرد من الحربة واشتهر فضله على سائر الحراب. فأرسل إليه الملك وتبع كامل الحراب التى كانت مع ولد تومه الشيخ محمد أبو لكيلك وقاتل بهم مسبعات وأعطاه الله النصر والظفر وأخرج مسبعات من كردفان. وانطبعت عليه قلوب العساكر وألفته النفوس وخضعت له كل الرءوس وكان معه الشيخ عدلان ولد صباحى فلما وجد الفايدة خطه وولاه على ديار خشم البحر».

مما تقدم يتبين لنا أن جيش سنار تعرض للاندحار فى أول أمره وقتل قائده وشيخ العبدلاب وجمع أبو لكيلك وابن أخيه بادى ود رجب وصديقه عدلان ولد صباحى فلول الجيش ودخلوا معركة ثانية قتل فيها شمام أحد قواد العبدلاب وانهزم الجيش مرة ثانية ونجح الشيخ محمد فى جمعه مرة أخرى وعندها وصلت الأخبار للملك سنار عن تطور الحوادث فى كردفان. فأرسل أمرا جعل الشيخ محمد أبا لكيلك بمقتضاه قائدا عاما للجيش وعندما دخل معركته الثالثه تم له النصر على مسبعات وأجلاهم عن كردفان. ومكافأة لصديقه عدلان ولد صباحى عينه على مشيخة خشم البحر وهى التى تقع جنوبى منطقة سنار على النيل الأزرق. وسنرى فيما بعد أنه عهد بالمشيخة بعده لابن أخيه بادى ود رجب. كل ذلك لموقفهما معه وجهادهما فى جمع فلول الجيش عقب انهزامه الأول ومنع أفراده من الهرب. وتجلت عبقرية الشيخ محمد لا كقائد لاقى انتصاره الأخير على مسبعات ولكن فى صبره وتجميع الجيش عقب انهزامه فى المرتين وبث روح الثقة فيه بالنصر النهائى. وتاريخ موقعة قحيف الأولى على وجه التقريب سنة ١٧٤٧ وتاريخ رجوعه إلى سنار من كردفان لعزل الملك

سنة ١٧٦١ — ١٧٩٢م . وبذلك بقى فى كردفان حاكما بأمره مدة تتراوح بين ١٤ و١٥ سنة . وعرف له جند سنار قيادته الرشيدة لهم وأن ما تم لهم من نصر نهائى يعزى إلى شخصيته مما جعل صاحب المخطوطة يقول « وانطبعت عليه قلوب العساكر وألفته النفوس وخضعت له كل الرءوس » . وظلوا معه طوال هذه المدة لا يعرفون رئيسا أو قائدا غيره ومعه بعض رجال الفونج من البيت المالك . ولا شك أنه قوى جيشه فى كردفان من مواردها الغنية بالرجال والخيل .

وبينما كان الشيخ محمد فى كردفان ومعه معظم جيش سنار كان الملك بادى أبو شلوخ يلهو ويظلم الناس . وهذا ما قاله عنه الشيخ أحمد « وأما الملك المذكور فإنه تدول فى الملك وتعمر إلا أنه فى آخر عمره اتبع هواه وظلم . وكان فى أول ملكه صغيراً متوليه وزيره دوكة وكان رجلا عاملا عادلا . فلما مات دوكة اشتغل هو بالملك وقتل بقية الأونساب وأخذ من أهل الأصول أصولهم من الديار ، وتعضد بالأنواب وأعطاهم ديار أهل الأصول وكذلك شيخ فورناس الشيخ خميس ولد جنقل وتعضد بهم على الفنج وعائلة الملك القديمين » . يتضح أن الوصى عليه وهو دوكة توفى وخلا الجو له وبدأ ينتهج سياسته الخاصة التى كان يريدها وهو تحت سيطرة وزيره . منها أنه قتل بقية عائلته من الأونساب ولعلنا نذكر أن أول ملك من هذه العائلة التى تمت بصلة الرحم لعائلة الفونج الأقدمين هو والده نول . وصار يصطفى النوبة وهم كما قدمنا أولئك السبايا الذين أحضرهم بادى أبو دقن من جبال النوبة وأسكنهم فى قرى حول سنار وصاروا يكونون حرس الملك الخاص وتناسلت أجيال منهم وأخذ فى توليتهم على الديار التى كان يتولاها من قبل أهل الأصول القديمة . ورفع جماعة الشيخ خميس أمير دارفور اللاجىء لسنار إلى مراتب الشياخة .

وانتقل بادى خطوة أخرى فى ظلمه وقهره كما يتبين من النص التالى فى المخطوطة «ثم إن المذكور تمادى فى ظلمه وفى سنة سبعين بعد المائة والألف قتل الخطيب عبد اللطيف وأيضاً أولاده الكبار أفسدوا فساداً كثيراً فلم يقدر بردهم عما هم فيه. ومازال يزداد ظلما وطغيانا. وكان كل من غضب عليه أرسله إلى حلته العكورة يحفر مع العبيد فى حفيرة. واجتمعت عليه أهل الخراب من كل النواحى من الشلاتيت وغيرهم. وأخرج ولد كمنه وخدم جميع الحلال. وما ترك مرتبة ولاغيرها إلا أخذ منها وأيضا ماترك عول المقاديم الذين فى الغرب مع الشيخ محمد أبى لكيلك إلا أخذ منهم. وبلغ مقاديم الفنج الذين مع أبى لكيلك فجاءوا إليه وقالوا نحن هذا الملك أبيناه فما تدبيرك فيه؟. فقال لهم أنا قبل هذا قلت لكم ما يبقى لكم ملك ولا لنا سيد فأبيتم وتركتم تدبيرى حتى حصل ما حصل فأشيروا بمشورتكم. فأشاروا بعزله وتمم على ذلك الشيخ محمد. وقام بالأمر بجد واجتهاد وتولى الأمر كله. فتجهز بالجيش كله الفنج وعائلة الملك وتوجه من كردفال محاربا للملك المذكور. ففى سنة ٧٤ نزل عند الجمع وقطع إلى الليس وأرسل إلى ناصر ولد الملك مخادعا له. وكاتبه بالملك ومن سابق كان بينهما كلام فلما بلغ ناصر ذلك خرج فى خفية ولحق بالشيخ محمد فى الليس. وكلهم توجهوا إلى سنار لعزل الملك المذكور. فلما وصل حاصروه وقالوا له اخرج عليك أمان الله. فخرج فى ذلة وقلة وقطع الشرق ودخلوا هم سنار. هذا ماجرى من أمره وذلك فى سنة ١١٧٥ هـ». أول عمل ظالم لبادى هذا ذكرته المخطوطة هو قتل الخطيب عبد اللطيف وهو خطيب مسجد سنار ولى الخطابة فيه بعد والده الخطيب عمار. وحج إلى بيت الله الحرام لنكبة أصابته من السلطان وجاور فى الأراضى الحجازية مدة من الزمن اجتمع فيها «بعلماء المغرب والحجاز والروم والتكرور» ومدحه بعض من اتصل به بقصائد أطرى فيها علمه وفضله. ويقول ود ضيف الله الذى ترجم له «لما حبسوه قال

عسى أن يكون قتل فقير بخراب ملك الملك بادى » .

ويتضح لنا من النص أن أبناءه عاثوا فسادا ولم يردهم عن غيهم وأن نصيب من يصيبه غضبه العمل مع العبيد فى حفر الحفير . وبما علم عنه من ظلم وقهر لعلية القوم تجمع عليه المخربون . وأرسل مندوبيه بجمع الضرائب من القرى ولم يعف من ذلك العلماء وأهل الولاية والصلاح . وما كانوا يدفعونها قبل ذلك بل يغدق الملوك عليهم المنح والعطايا وإقطاعيات الأراضى وحتى عائلات مقاديم الفونج الذين كانوا يحاربون فى كردفان ويوسعون رقعة مملكته فرض عليهم الضريبة وأخذها منهم . ووصلت الأخبار إلى رجال الفونج فى كردفان وخاصة تلك الضرائب التى أخذها من عائلاتهم . واتفقوا مع الشيخ محمد أبى الكيلك على خلعه والزحف بكامل جيش كردفان لتنفيذه . ويتضح أن بعض الذين كانوا مع الجيش من الفونج اشتركوا فى رفع بادى للعرش بدليل أن الشيخ محمد أبا الكيلك لم يكن راضيا عن إجلاسه عليه فى بادىء الأمر ولكنه ترك الأمر لهم يقررونه بطريقتهم التقليدية . والظاهر أن ناصرا ابن الملك كان على اتصال قبل ذلك بالشيخ محمد وعندما تقرر خلع بادى اتصل بناصر مرة أخرى لملاقاته على النيل الأبيض .

وكانت النتيجة مقررة سلفا من مجريات الأحوال . فالملك أثار الرأى العام الدينى بقتله الخطيب عبد اللطيف وبطلبه من رجال الدين دفع الضرائب . وأثار أفراد العائلة المالكة بأن أجبر عائلاتهم فى سنار على دفع الضريبة وهذا أمر لم يألفوه من قبل . وحتى أفراد الشعب سلط عليهم مندوبيه لجمع الأموال منهم بدعوى الضريبة أيضا . ولذلك بقى وحده فى الميدان لم يهب لنصرته فرد أو مجموعة حينما وقف أمام جيش سنار الزاحف من كردفان والجيش قضى فى كردفان ما يزيد على ١٤ سنة تحت قيادة الشيخ محمد الرشيدة ومقاديم الفونج حاربوا واعترفوا بزعامة الشيخ

محمد . وكل هذه المدة ما كان لهم اتصال بالملك ولم يعرفوا غير قائدهم ومقاديمهم الذين قادوهم من نصر إلى نصر . وانضم إلى جيش سنار أثناء إقامته تلك فى كردفان فرسان ومشاة من المنطقة كان ولاؤهم منذ البداية للشيخ محمد ومقاديم الفونج . فلا غرابة إذا ما خرج بادى من سنار حقيرا ذليلا بمفرده دون أن يهب لنجدته فرد أو مجموعة لأن أصحاب المصالح من المخربين الذين تعضد بهم انفضوا من حوله عندما أيقنوا زوال ملكه . وهذه السهولة التى تم بها العزل جعلت بعضهم يعزو ذلك إلى عمل سحر قام به فلاتى استخدمه الشيخ محمد والفونج لهذا الغرض .

وبهذه الطريقة تربع ناصر ابن الملك المخلوع على العرش ولكن السلطة الفعلية تركزت فى يد الشيخ محمد ومن بعده فى عائلته إلى أن زالت دولة سنار بفتح محمد على للسودان فى سنة ١٨٢١ م ، وكما يقول الشيخ أحمد « صار التاريخ بمدة مشايخ الهمج لا اعتبار الملوك » . أما بادى فإنه ذهب لسواكن فى بادىء الأمر ويروى بروس أنه التجأ إلى الحبشة فى منطقة الرأس سهيل ميخائيل الذى وعده بإعادته إلى عرشه إذا ما وافق الإمبراطور وسار به إلى الإمبراطور الذى رحب به وأكرمه واعدا إياه بالتأييد وفى انتظار ذلك أقطعه ولاية رأس الفيل على الحدود وأصبح تابعاً له كشأن الولاة الآخرين فى الحبشة . غير أن مكيدة دبرت له فيما بعد يرجح أنها بإيعاز من عدلان ولد صباحى صديق الشيخ محمد وشيخ خشم البحر . فقد ادعى بعض رعايا سنار أنهم يؤيدونه ويجمعون له الأتباع لاسترجاع عرشه إذا ما سافر إلى منطقة نهر عطبرة . وهناك قتله الشيخ ولد حسن حاكم تيوه (منطقة القضارف) قتله غيلة بالرغم من أن بادى كان دائما على حذر حاملا سلاحه . ولكنه طعن من الخلف عندما وضع سلاحه ليغسل يديه .

بقى الشيخ محمد بعد عزل بادى وهو صاحب السلطة المطلقة نحو

عشرين سنة إلى أن توفاه الله . ويذكر الشيخ فى مخطوطته أنه فى سنة ١١٨٤ هـ شح المطر وحدث غلاء ومحل ولذلك سميت سنة الكبسة وفى سنة ١١٨٥ هـ زاد النيل وبعد سنتين زاد زيادة كبيرة حتى سميت سنة البعوضة . وقبل أن نغادر عهد الشيخ محمد يجدر بنا أن نقف قليلا لنتبين الحالة فى سنار حسب ما وصفها الرحالة الإسكتلندى بروس وخاصة لما أثاره من نظرية أن الفونج يرجعون بنسبهم إلى الشلك . وصل جيمس بروس إلى سنار فى ٢٩ أبريل ١٧٧٢ م بعد أن قضى نحو سنتين ونصف فى الحبشة وبعد أن مر على منطقة نيوا (القصارف) وشيخها الشيخ فضيل . ولم يكن آمنا وهو فى ضيافة فضيل هذا لأن الشيخ كان طامعا فيما لدى بروس من الذهب وحسب ما يروى تعرض لخطر القتل ولكنه نجا بفضل شجاعته وما يحمله من أسلحة نارية . وكان الشيخ محمد أبو لكيلك فى كردفان آنذاك . والظاهر أنه ظل يتردد على كردفان المكان الذى بدأت ونمت فيه عظمته ولكنه ترك صديقه عدلان شيخ خشم البحر مرابطا فى قريته الصغيرة بالقرب من سنار .

ويروى بروس أن الملك إسماعيل استقبله ثانى يوم وصوله سنار . وإسماعيل هذا عينه الشيخ محمد بعد أن خلع ناصرا حيث تبين له أن الأخير تآمر على حياته مع بعض الفونج ولكنه أخمد المؤامرة فى مهدها حيث أرسل إليه الجند ودخلوا عليه وقتلوه . وصاحب المخطوطة يروى تدين ناصر بأنهم حين قتلوه وجدوا المصحف عن يمينه والموطأ عن شماله . وصف بروس الملك بأنه يبلغ نحو ٣٤ سنة يجلس على مرتبة ويلبس قميصا من القطن أزرق اللون من مصنوعات الهند وفى أطرافه حرير أبيض . وكان رأسه حافيا وكذلك قدماه ويميل لونه إلى البياض مثل العرب . ودارت مناقشة فى المجلس عمن هم أعظم الملوك فى العالم وعن يأجوج ومأجوج . وادعى بروس أنه ساح فى الأرض نحو ٢٠ سنة فى شكل

الدراويش متقشفا نابذا متع الدنيا ليكفر عن سيئاته وطاب إلى بروس حين إقامته فى سنار معالجة زوجات الملك وفعل ذلك على مضض منه حيث أسهب وبالغ فى وصفهن بالقبح والتوحش .

ولكنه حين قابل عدلان ولد صباحى فى الصيرة خرج بانطباعات حسنة منه . أعجب بنظام جنده حيث لكل واحد منهم فرسه وأدوات حربه من رمح وسيف ودرع وخوذة ودرقة وكلها موضوعة بنظام وكلهم على استعداد لارتداء اللبس وحمل آلات الحرب واعتلاء صهوات جيادهم فى وقت قصير عند صدور الإشارة من سيدهم وكلهم عبيده . هذا المعسكر الضخم كله داخل زريبة من أغصان الأشجار ذات الأشواك . ولم يكن عدلان نفسه جالسا فى ديوان أو بهو ولكنه على جذع نخلة ملقاة على الأرض فى حصنه هذا تحف به جنوده من خاصة عبيده .

ويلبس قميصا محلى بساتان أصفر فى أطرافه وعلى رأسه الطاقية أم قرنين (ذات القرنين) علامة المشيخة . ودارت مناقشة عن خيله وعن الحرب الحبشية السابقة والتى وصفها عدلان بأنها محاولة جنونية أعقبها توتر فى العلاقات بين البلدين ولكنها لم تصل إلى حد العداء . وكان هم عدلان آنذاك هو أنه كيف يستطيع استخدام العرب أى جباية الضريبة منهم ؟ . وهو فى هذا إنما ينوب عن الشيخ محمد أبى لكيلك الغائب فى كردفان آنذاك . ولم يكن رأى عدلان حسنا فى الملك إسماعيل . ففى نظره أنه أداة عرقلة فحسب . فهو لا يحكم ولا يتقبل النصح ولا يقرر الحرب أو يبقى هادئا . وفى هذا دلالة على أن الملك بالرغم من انتزاع كل السلطات منه فإن أوامره لإعلان أى حرب ضرورة لازمة بحسب العرف والعادة .

ويبدو أن مقابلته لعدلان كانت فى أيام الرشاش (بداية الخريف) لأنه حينما خرج منها قابل الأعراب المتجمعين فى مقر عدلان وهم من

قبائل نهر عطبرة وتحادث معهم . وعلم أنهم الآن فى هجرتهم إلى الشمال حيث تتكاثر الأمطار فى مواطنهم الأصلية يجعل الحياة لإبلهم وماشيتهم وأغنامهم غير محتملة بسبب الذباب الذى يؤذيها ويؤدى إلى موتها وهذه المنطقة الشمالية وهى البطانة على ما يبدو خالية من الذباب وبها بعض الحشائش النامية فى بداية الخريف لبهائمهم . وشكوا كلهم من ثقل الضريبة المفروضة عليهم مما أيد ملاحظة عدلان بأنهم يودون أكله حيا لو تسنى لهم ذلك . وهذه الضريبة لا تدفع نقدا لقلة تداول النقد أو انعدامه بين العرب بل عينا من الجمال التى تصدر إلى تجار دنقلا ومنها لمصر أو ذهبا أو رقيقا .

والشخصية الثالثة بعد الملك وعدلان التى قابلها بروس وتحدث إليها هى شخصية أحمد سيد القوم . وذكر أن أهم واجب لسيد القوم هو قتل الملك إذا ما قرر المجلس ذلك . ونشأ أحمد هذا فى قرية فى فازوغلى وكان وثنيا ولا يزال محوطا بفريق من الذين يقومون بأعمال السحر . وكتب السحر . وكتب أحمد كشفا بأسماء ومدة تولية ملوك سنار إلى الملك إسماعيل وهو نفس الكشف الذى وضعه بروس فى مكتبة بودليان بأكسفورد ومنه ومن حاشيته استقى بروس معظم معلوماته عن أحوال سنار وتاريخها ويبدو أن شبح دى رول المقتول فى سنار أصاب بروس بنوع من القلق حيث قرر السفر واستأذن الملك ولم يودع عدلان ولو أن الأخير وعده بحرس خاص . مر فى طريقه بأربجى وقابل شيخ العبدلاب وفى شندى ذكر لنا مقابلته لستنا أخت محمد شيخ العبدلاب وسماها ملكة شندى وذكر حديثه معها عن الصلع وأسبابه . وقد قرأ مسيو كايو هذه الفقرة من كتاب بروس للملك نمر عند ما حضر الأول فى حملة محمد على للسودان . واستغرب الملك لأنه لم يعرف عن الجعليين أنه كانت لهم ملكة وفى سنة ١٧٧٢ التى تبعد نحو ٥٠ سنة من مقابلة كايو لنمر .

وبروس بعد أن سماها ملكة شندى ذكر أنها تتحدث عن ابنها إدريس ملك الإقليم .

وفى طريقه شمالا من شندى يمر ببلدة الدامر ويذكر ود المجدوب وأنه من الأولياء الصالحين المعتقد فيهم وأن ذكر اسمه فقط يجعل القافلة تمر بسلام فى منطقة المكابراب الخطرة . وعند ما وصل لمنطقة بربر ذكر الفوز (فوز الفونج) ولكن المكان الذى انتهت عنده قافلته هو الحصا . وهناك تحت ما سماه جبل العطشان دخل ليستحم وبقى فيه نصف ساعة . ومن الحصا سارت القافلة فى طريقها عبر صحراء العتمور إلى مصر .

ويتضح أن الحصا ما زالت إلى عهد بروس محطا لرجال القوافل . وفى هذا دليل آخر إلى أنها كانت المرحلة الأولى للقوافل الآتية من سواكن والتى سار مع واحدة منها داود روبينى وبذلك كانت ملتقى لقوافل البحر الأحمر ومصر . ورجع بروس لوطنه ليكتب كتابه : « رحلات لكشف منابع النيل الأزرق » فى سبع مجلدات . وقبل أن نناقش رأى بروس عن أصل الفونج وقبل أن نقيم ما سجله من ملاحظات عن الطبيعة والناس فى دولة سنار ومدى دقته يجدر بنا أن نورد فيما يلى بالنص ما كتبه عنه آلان مورهيد فى كتابه «النيل الأزرق» ، وكما لخص جزءاً منه الدكتور حسين مؤنس فى عدد « الأهرام » بيوم الأحد ٣ مايو سنة ١٩٦٤ .

« ولد بروس فى ضيعة أهله فى كبنيرد فى اسكتلندا . وكان رجلا ضخما يقرب من المترين طولا . كان جبارا عاتيا فى هيئته وخلقه . ولم يكن برجل علم ولا صاحب رسالة . وإنما كان مغامراً أنانيا لا هم له إلا نفسه . ولم يرم به إلى ضفاف النيل إلا حب المغامرة والطمع فى الشهرة وبعد الصيت » . وبعد ملخص لوصف رحلته « وعاد الرجل إلى إنجلترا

وتحدث بما رأى فكذبه الناس لأن المبالغات التى حكاها ثم زهوه بنفسه وقوله إنه فعل ما لم يفعله القياصرة . كل ذلك أغرى به الخصوم فانهالوا عليه وكان فى مقدمة مكذبيه صمويل جونسون الأديب والمحدث الإنجليزى المعروف . وكان له هوى بالتاريخ القصصى للحبشة . وله فيه قصة معروفة (راسيلاس) فما راعه إلا وهذا الإسكتلندى الضخم المغرور يملأ الدنيا صياحا فحمل عليه وأمام جونسون — قطب الفكر الإنجليزى فى أيامه — لم يستطع جيمس بروس إلا الفرار . . . ورحل إلى ضيعته فى كبنيرد ولم يجرؤ حتى على كتابة وصف رحلته .

بعد نحو عشرة أيام تشجع وكتب . وأعانه فى ذلك صديق قديم يسمى لاتروب . بعد أن فرغ الكتاب طلب الرجل أتعابه فأنكر عليه بروس كل فصل . ثم تفضل عليه بخمسة جنيهات .

إنكار فضل الآخرين كان خصلة أصيلة عند بروس . سكرتيره الإيطالى مات فى غندار فلم يذكره بكلمة خير وكذلك أنكر فضل راهبين برتغاليين سبقاه إلى بحيرة تانا هما بايث وخيرونيمو لوبو . بل حمل عليهما واتهمهما بالكذب . فى كتاب بروس المسمى « رحلات لكشف منابع النيل فى سنوات ١٧٧٠ — ١٧٧٣ » حق كثير . ولكن فيه كذباً كثيرا أيضا . الحق فى وصف الطبيعة والأرض والطرق ومنبع النيل الأزرق . والكذب فى الكلام عن الناس وخاصة من لهم عليه فضل » .

بعد هذا النص الذى يظهر لنا مستوى الدقة والأمانة العلمية عند بروس نستطيع أن نتخيله بلغته العربية التى ربما لم تكن مفهومة تماما لمحدثه فى سنار وكذلك لغة من تحدث معهم هناك الذين لم يتمكنوا من نقل ما يقصدونه إلى بروس بلهجتهم المحلية — نتخيله جالسا إلى أحمد سيد القوم أو غيره يتلقى أخبارا مختلفة عن القبائل والحروب والتاريخ فى دولة سنار ومن

وقت لآخر يكتب كلمة واحدة أو جملة قصيرة فى مذكراته . ولحسن الحظ دون لنا كروفورد هذه المذكرات عن معلوماته التى استقاها فى سنار وهى كما يلى :

« مشايخ أعالى النيل الأزرق هم السكان الأصليون لتلك المنطقة وهم الفونج الذين أتوا من الإقليم الذى أتى منه شنقالا — وهم الذين طردوا العرب تحت زعامة ود عجيب — فازوغلى وقبا أقليم الفونج — ملك سنار من الشنقالا — الاسم الخاص لهم شلك — هؤلاء يسكنون فى ثلاث جزر رئيسية كبيرة على النيل الأبيض وينتهون فى زوارقهم الصغيرة إلى إلى أعلاه — هم كثيرو العدد ويأتون من تلك الجزر على الجانب الغربى للنهر وعددها كبير — وبين النيل الأزرق والنيل الأبيض جنس آخر من النوبة وهم النوبة الأصليون وبلاد الذهب — هؤلاء السود يأتون من قبا نوبا وفازوغلى وقوبا ونوبا تمتد إلى حدود كواره فى الأقليم الحار الواطىء فى الجنوب الشرقى للاقليم — »

وعند ما كتب بروس قصته عن أصل الفونج من تلك المذكرات كانت تتلخص فيما يلى :

« سنة ١٥٠٤ أتت قبيلة أو أمة من السود لم تكن معروفة قبل ذلك فى مجموعة كبيرة من الزوارق المعروفة بكانوز (Canoese) فى غارة على أقاليم العرب . وفى حرب بالقرب من أربجى تغلبوا على ود عجيب . واضطروه إلى التسليم على شروط أملوها . وهى أن يستمر العرب فى سيادتهم على ممتلكاتهم السابقة وأن يحتفظ ود عجيب بمكانته وعلى أن يكون على استعداد تام لاستعمال القوة لإرغام العرب البعيدين لدفع نصيبهم من الجزية إذا ما امتنعوا عن ذلك . والشرط المتفق عليه هو أن يدفع العرب نصف ما يمتلكون من ماشيتهم فى بادىء الأمر وبعدها كل

سنة تالية. وقد رضى ود عجيب أن يكون مندوبا عنهم . وهذه القبيلة تعرف فى بلادها بالشلك » .

ونقطة الضعف الأولى فى هذه الرواية هى أنه جعل الشلك وأوطانهم معروفة على النيل الأبيض يأتون فى زوارق وينقضون على ود عجيب وجماعته فى أربجى على النيل الأزرق وهذا مستبعد لأن المسافة بين جهات الكوة عبر أرض الجزيرة إلى أربجى مسيرة أيام وتستطيع أية جماعة عبورها ولكن بالأرجل أو على الإبل والحمير والخيل وليس على الزوارق. ولم يذكر الشلك وهم يحتفظون بتاريخهم عن طريق الرواية أن جماعة منهم أسست ملكا فى سنار . ومع ذلك لو استبعدنا الشلك وقواربهم وأخذنا بنظرية أن الفونج أسسوا دولتهم الأولى فى بنى شنقول فى أعالى النيل الأزرق ثم امتد نفوذهم شمالا إلى نواحى سنار وتكونت أيضا قوة أخرى مجاورة لهم شمالا فى أربجى عمادها القبائل العربية وعلى رأسها ود عجيب المشار إليه فى القصة وأنه هو عبد الله جماع مؤسس أسرة العبدلاب لأمكننا تصديق احتمال بقية القصة وهى أنه وقعت حرب بين عمارة وعبد الله جماع فى بادىء الأمر وبعد أن انتصر الأول تعاهد الاثنان على أن يكون الأخير وكيلا للفونج على المنطقة من أربجى شمالا إلى الحدود المصرية . ولكنها مجرد نظرية استوحيناها من مذكرات بروس يحتاج إلى أدلة أخرى لتأييدها .

تتابع كثيرون بتصديق رواية أن الفونج أصلهم من الشلك ومنهم أركل . إلا أنه أخيرا أتى بنظرية أخرى تجعل العائلة المالكة للفونج تنحدر من أمير من سلالة سلاطين برنو . واستنتج هذا من نص ورد فى تاريخهم المدون يقول فى سنة ١٤٨٦ طرد ماى عثمان بن قاضى من برنو وذهب لأرض ملكادا وهناك حكم الشرق والغرب لفترة مائة سنة إلى أن قضى على ملكه الأتراك . وفسر أركل أن أرض ملكادا هى المكادة فى الحبشة

ولكنه لتأييد نظريته جعلها إقليم سنار وبهذا يكون ماى عثمان هذا أسس دولة الفونج أو أحد أبنائه الذى ربما كان اسمه عمر أو عمارة دونقس نفسه وفى سلسلة سلاطين برنو ورد اسم عمر كثيرا . وأركل معروف بالوصول إلى نتائج لا تؤيدها دلائل ومقدمات كافية ويستطيع أن يبنى نظرية على أساس ضعيف ويصدق بها ثم يحشد لها أدلة بعد ذلك قد لا تكون ذات صلة وثيقة بالنظرية . فهو فى هذه الحالة هنا فسر ملكادوا بأنها مكادة فى الحبشة ثم فسر مكادة هذه بأنها تعنى إقليم سنار .

ونصه الذى نقله يقول بأن هذا الأمير البرناوى حكم مائة سنة ثم قضى على حكمه الأتراك . وكانا نعلم أن دولة الفونج قضى عليها محمد على إذا كان هو المقصود بالأتراك فى سنة ١٨٢١ م أى بعد مضى أكثر من ثلاثمائة سنة على تأسيسها . ولكن أركل عند ما أنس ضعفا فى نظرية برنو عاد وربط بين الشلك وهذا الأمير البرناوى . جعل هذا الأمير يهاجر من بلاده مطرودا إلى الشرق ينزل مع الشلك فى النيل الأبيض وكالعادة يتزوج منهم وبما له من مستوى ثقافى أعلى يسود عليهم ويكون منهم قوة ضاربة يتغلب بها على ولد عجيب فى أربجى كاورد فى قصة بروس . وبذلك يكون قد جمع بين النظريتين . قيادة برناوية إسلامية وجند من الشلك . ولكنها حدس وتخمين لا أدلة تقوم على تأييدها .

وقد جمع مستر جاستون بعض الروايات المحلية فى كتابه « سن النار » بالإنجليزية عند ما كان مفتشا فى سنار سنة ١٩١١ م . فالفونج أنفسهم يؤكدون هرب أمير من أمراء البيت الأموى بعد انقضاء ملكهم ويسمونه سليمان . هرب إلى الحبشة وتزوج بنت الملك ورواية أخرى تجعلها بنت ملك السودان وله ولدان هما داود وأنس . وعندما علم الخليفة العباسى بأن النجاشى آوى بنى أمية الهاربين أرسل إنذارا له . وخاف النجاشى مغبة غضب الخليفة وأرسل إليه هدايا وأمر اللاجئين بأن يخرجوا

من دياره وسكنوا بعدها فى دار فونج فى حدود الحبشة وتزوجوا من أهل البلاد وأخضعوا الأهلين لحكمهم وبالتدريج تحولت ألوانهم إلى السواد نتيجة أجيال من من الزواج بالإفريقيات . وحدث تحريف فى أسمائهم العربية . فداود أصبح أودون وأنس أصبح أونسه .

وروايات أخرى محلية دونها بعض المفتشين والمديرين الانجليز فى المنطقة فى مجلة « السودان فى رسائل ومدونات » . منها رواية المستر نولدر وهى ترجعهم إلى بنى أمية أيضاً حيث قدم سليمان واستقر أولا فى أروسا (ارتريا) ومنها هاجر إلى قارا فى بلاد القالة (الحبشة) ووجد الأهلين معادين للاسلام . وغادرها إلى تافا تحت حكم ملك كرن (أرتريا) وعمل بتدريس القرآن وأصبح ذا حظوة عند الملك حتى جعله مستشاراً له بدلا من شيخ العبدلاب الذى رحل قبله مباشرة لبلاد السودان . وتمت الصلة كما هو منتظر بأن تزوج سليمان بنت الملك ومن أولاده عمارة دونقس الذى دخل أرض السودان وأسس مملكته . وضعف الرواية هو أنها اختصرت الزمن وجعلت هذا الأموى الهارب بعد سنة ٧٥٠ م حينما زالت الدولة الأموية بلد عمارة الذى أسس دولته فى سنة ١٥٠٠ م . وهذا ما يحدث غالبا فى الروايات المتناقلة بدون تدوين . وشاتاوى يروى عن الملك نايل فى كيلى أن مؤسس الأسرة هو سليمان بن خالد تزوج بنتا للملك فى دنقلا وأصبح ابنه ملكا للعنج ويتم قصته بأخبار مشوشة عن حرب بين العنج والفونج ويستطرد فى ذكر تغيير ألوانهم من اللون الأبيض إلى الأسود نسبة لزواجهم من البرتا والهمج والأنقسنا . وهناك روايات أخرى لا داعى لسردها لأنها تختص بهجرات وحروب بعد تأسيس مملكة الفونج ولا تلقى ضوءا على أصلهم .

والمصادر العربية التى تروى الحروب والمنازعات بين البجة والنوبة من جهة وبين الدولة الإسلامية فى مصر تقص خبر أمير أموى هرب

إلى بلاد النوبة ولكن الأخير طرده من بلاده لأنه خاف غضب الله على أرضه طالما ظل فيها هذا الأمير لأنه تبين له بعد مناقشات عما حرمه الدين الإسلامى وأن بعض المسلمين لا يرتدعون بأوامر دينهم . وقبض على هذا الأمير فى مصر وأرسل لسجن بغداد وهناك قص للخليفة العباسى هذه القصة . ولا بد والحالة هذه أن بعضهم قد التجأ إلى بلاد البجة ثم إلى الحبشة وهناك تزوج بنت ملك أو حاكم وتكونت من نسله سلالة حاكمة وجدت طريقها إلى أعالى النيل الأزرق حسب هذه الروايات المحلية التى تتفق على قصة هروب بعض أمراء بنى أمية وتختلف فى التفاصيل . وعند ما كنا نبحث فى الموطن الأول للفونج عند تأسيس دولتهم ذكرت لنا إحدى النسخ قدوم أميرين من الأمويين إلى منطقة لولو على أعالى النيل الأزرق وقدوم رجل ثالث من السافل تزوج بنت ملكهم وأصبح ابنه من بنت الملك وارث جده فى العرش . هذه أيضاً من الروايات المحلية التى كانت متداولة ودونت فى أوائل القرن التاسع عشر . ومهما كان من أمر فالفونج فى ادعائهم النسبة لبنى أمية يستوون مع كثير من القبائل السودانية الحالية فى إدعاء النسبة إما لآل البيت أو للعباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام أو لبعض كبار الصحابة . ولكن الجميع أصبحوا سودانيين عريقين فى سودانيتهم وبالتالى فى عروبتهم وإسلامهم مهما خالطتهم من دماء أخرى .

العهد الأخير لدولة سنار

توفى الشيخ محمد أبو لكيلك بعد أن ضم كردفان إلى دولة سنار وبقى فيها نحو أربع عشرة سنة صاحب الأمر والنهى ومعه مقاديم من الفونج وكون للدولة جهازاً حربيا ممتازا بما أضاف إليه من رجال وخيل كردفان وأخيرا عندما رجع وعزل بادىء الأحمر ورفع ابنه ناصرا سلب الملوك سلطاتهم وتولى هو بنفسه زمام السلطة الحقيقية . وعندما تآمر عليه الملك ناصر مع آخرين قتله الشيخ محمد ورفع أخاه إسماعيل إلى العرش استمرارا لهذه السلطة الاسمية . وظل يتنقل ما بين كردفان وسنار طيلة العشرين سنة التى كان فيها حاكما فردا وعاونه فى ذلك كما يبدو صديقه عدلان ولد صباحى الذى عينه شيخا لمشيخة خشم البحر وابن أخيه بادى ولدرجب . وبالرغم من كفايته واستقرار الأحوال فى عهده إلا أنه اقتلع شجرة قديمة امتدت جذورها فى الأرض وبذر بذرة جديدة لم تستطع الاستواء على ساقها بعده . اقتلع تقاليد ملك فيها نوع من الشورى ولو أنها محدودة وفيها جهاز ينزل الملك عن العرش إذا تنكب الطريق أو أصبح متهتكا خليعا . وأقام نفسه حاكما فردا مستبدا دون أن يقيم جهازا مشابها للشورى . وكانت النتيجة أن البلاد بعد موته ظلت نحو خمس وأربعين سنة مسرحا لمنازعات وهزات عدة قتل فيها ملوك حاولوا استعادة نفوذهم وانقسم بيت الحكم (الهمج) على أنفسهم واتخذ كل فريق أعوانا وحلفاء من المشايخ الآخرين متآمرا معهم ضد الفريق الآخر . والتاريخ يحدثنا أن حكم الفرد مهما كان عادلا ومستنيرا من غير أن تكون له قاعدة من الشورى ويخلفه غيره بطريق دستورى معتمدا على هذه القاعدة يدخل البلاد فى فوضى كبيرة بعد زوال عهده .

أصبح بادى ولد رجب شيخا للهمج وبالتالى صاحب السلطة فى دولة

سنار بعد عمه حوالى سنة ١٧٧٦ — ١٧٧٧م والمخطوطة تطرى شجاعته وكرمه وعدله على الملك إسماعيل عندما زالت يد أبى ليكيلك القوية لاسترداد نفوذهم ودخلوا فى حرب مع الشيخ بادى استمرت نحو شهرين دخرهم فيها أخيرا وتم عزل إسماعيل وأرسل لاجئا إلى سواكن · ورفع بادى الملك عدلان بن إسماعيل إلى السلطة الرمزية . وخرجت قبيلة الشكرية عن طاعة بادى وهب بنفسه إلى برنكو وظل يتنقل على ضفة النيل الأزرق الشرقية بينها وبين رفاعه يمنعهم ورود النيل . وأرسل الجيش لقتالهم فى البطانة وكانت النتيجة أن قتل أبو على شيخهم . ومن المخطوطة ومن روايات الشكرية يظهر لنا أنه خدع بعض زعمائهم وأحضرهم فى سنار وغدر بهم وفر البعض الآخر لتتجمع القبيلة حوله لمناهضة الهمج . وحدث سوء تفاهم مع أبناء عمه وضرب منهم ناصرا . ثم عزل الشيخ الأمين ولد مسمار مانجل العبدلاب ونفاه إلى جبل القربين وعزل أحمد ولد على واستبدله صباحى ود عدلان على مشيخة خشم البحر . اجتمعت هذه القوى الثلاثة أبناء عمه الشيخ محمد وأحمد ولد على والأمين مسمار مع الملك عدلان وقرروا الثورة على بادى الذى كان آنذاك فى شرق النيل الأزرق فى نضاله مع الشكرية كما يبدو .

تجمعت القوى الأربع فى سنار وأخذت مابها من خيل وسلاح ورجال ولحقت بشنبول وصباحى وهما مع العرب لجمع الضرائب وتغلبوا عليهما وضموا ما معهما من خيل وسلاح إلى القوة المشتركة · وسمع بادى بالمؤامرة وقطع من الشرق إلى أربجى وفى عجلة لبس ثوبه المنيرى وتضمخ بالطيب . والغضب والحنق بلغا عنده مداهما وامتطى صهوة حصانه متجها إلى سنار مبديا ضروبا من الشجاعة الفردية ولكنه قتل فى سنة ١٧٨٠ · وبدلا من أن ينظروا فى إقامة جهاز جديد أو حتى إرجاع جهاز الفونج التقليدى خلف رجب بن الشيخ محمد بادى المقتول على مشيخة الهمج وبالتالى

الحكم الفعلي لدولة سنار واكتفى أحمد علي بمشيخة خشم البحر كما كان والأمين ودمسمار استعاد نفوذه على مشيخة العبدلاب . أما الملك عدلان فلم ينل من الأمر شيئا . وذهب الشيخ رجب بعد ذلك بقليل إلى كردفان كعادة والده الشيخ محمد وابن عمه بادى . وتأمل الملك عدلان فيما حل بدولة الفونج وملكهم ورأى أن الهمج خلعوا جده بادى أبا شلوخ وقتلوا عمه ناصرا وخلعوا أباه إسماعيل . وها هو ذا اشترك مع فريق منهم فى مؤامرة لإزالة طغيان بادى ولكنه خرج خاوى الوفاض وظل كما هو مسلوب السلطات .

ولم يأنس الشيخ رجب إلى الأمين ودمسمار ولو أنه اشترك معه فى المؤامرة ضد بادى ودرجب وكذلك بعث أثناء وجوده فى كردفان بأخيه ناصر فى عدد من الخيالة والتقى بالأمين فى الهلالية شمالى رفاعه وتقول المخطوطة المعدلة إن الشيخ الأمين معه آنذاك ستة عشر فارسا من أولاده وعبيده ومع ذلك تغلب على الشيخ ناصر وحمله على أن يخوض إلى الغرب . وفى الجزيرة اتصل ناصر ببادى ولد مسمار وعينه فى ود مدنى شيخا على العبدلاب بدلا من أخيه الأمين وذلك بإيعاز من أهل أربجى على ما يبدو وعندما علم الأمين بذلك توجه إلى الشكرية وسار بهم لتأديب أهل وهنا اختلفت الروايات فمخطوطة الشيخ أحمد الأصلية تقول بأن أهالى أربجى أخلوها عندما علموا بنية الأمين والمخطوطة المعدله تقول إنه ومعه الشكرية أهلكوا المقاتلين من أهلها وما بقى تفرق بالجهات وتركوها قاعا صفصفا . ووصفها الشيخ أحمد بأنها « قرية كاملة الحسن والبنيان مليحة العمارة والتجارة . أديبة فى المأكل والمشرب . وفيها اناس صالحون ومدارس علم وقرآن . وفيها عجائب يحكيها من حضرها » .

ويتضح مما تقدم أن الشيخ الامين ود مسمار أصبحت له مصلحة مشتركة

مع الملك عدلان فى مقاومة رجب وإزالته . وكذلك أولاد نمر من الجعليين كانت لهم مصلحة فى الانضمام إلى الملك والأمين لأن منافسهم على زعامة الجعليين الملك سعد ولد الملك أدريس ولد الفحل كان آنذاك مع الشيخ رجب فى كردفان . واجتمع الشيخ الأمين وأولاد نمر مع المللك عدلان فى سنار واتفقوا على قتل إبراهيم الذى تركة أخوه رجب وكيلا عنه فى سنار وعلى قتل الهمج ومن انطوى تحت لوائهم . وقبض على الجميع وقتلوا فى الساحة العامة واسترقوا بنات الشيخ محمد ووزعوهن جوارى على رءوس العساكر فى رواية وعلى الجعليين خاصة فى رواية أخرى . وفر التعيسان إلا نقيب (شاعر وجليس الزعماء) إلى كردفان وبشعر شعبى نقل له المأساة التى حلت بأخيه إبراهيم وبأخواته بنات الشيخ محمد . أعلن الحزن والحداد وتحرك بجيشه قاصدا سنار . وخرج إليه المالك وحلفاؤه واقتتلوا بمكان اسمه الترس وقتل الشيخ رجب وتفرق إخواته وبقية الهمج . نزل معظمهم بقرية عبود فى قلب الجزيرة . وذهب بعضهم مع الملك سعد الجعلى . ولجأ بعضهم إلى كردفان ولم يغادر ناصر المنطقة حتى أتاهم رسول الفقيه حجازى ولد أبى زيد وكانت له صداقة مع والدهم الشيخ محمد وأمرهم بالثبات والتجمع مبشرا إياهم بالنصر النهائى وسيلحق بهم . ورفع المنتصرون ناصرا ولد محمود إلى المشيخة فى سنار .

وبدأ ناصر ولد محمد يجمع فلول جيشه بعد تشجيع الفقيه حجازى هذا وأقام بالتومات سنتين ثم ارتحل إلى طيبة قندلاوى شمالى سنار ورابط هناك وانتابت البلاد أثناء هذه الفترة وخاصة أرض الجزيرة حالة قلق واضطراب . فالشيخ ناصر ولد محمود الذى ارتفع للمشيخة لم يتعد نفوذه منطقة سنار وما جاورها والآن رابط أولاد الشيخ محمد فى طيبه قندلاوى . والملك عدلان كان طريح الفراش يتداوى من علة أصابته . ومشايخ الأقاليم انفرد كل منهم بمنطقة دون نفوذ عليه من سنار . وأخيرا جمع

الملك جيشه وأعوانه وخرجوا لقتال ناصر وإخوانه والقائد على الجميع الأمين رحمه ولد كدناوى ومعه مقاديم الفونج والأمين ولد مسمار ومحمد أبو ريدة وهو شخصية ظهرت الآن سيكون لها أثر فى مجرى الحوادث فيما بعد والتقوا فى انطرحنا واشتد القتال بين الفريقين كانت نتيجته اندحار جيش الملك عدلان وغرق بعضهم فى النهر وطردوهم حتى دخلوا سنار . ومات الملك عدلان نتيجة مرضه وحالة اليأس التى اعترته . وتشير المخطوطة إلى حالة فوضى وقتال داخل سنار والسوق قبل دخول ناصر . وهذا محتمل الوقوع لأن الملك مات وجنده تراجع مقهورا وسادت المدينة حالة من الفوضى التى تسبق دخول الجيش المنتصر . وتحول ناصر إلى جنوبى المدينة وأشعل النيران فيها وخرج إليه بعض الجند وناوشوه قليلا دفاعا عن أنفسهم وفى الصباح التالى تقابل الجيشان مرة أخرى ويظهر أن جند الملك شعروا بضعف قوتهم فتقهقروا مفسحين الطريق لناصر وجنده ليدخلها دخول الظافر وزادت المدينة خرايا على ما أصابها من نهب وسلب ومن النيران التى اشتعلت فيها من قبل .

ويبدوا أن هذه كانت آخر محاولة جادة من الفونج لاستعادة ملكهم ونفوذهم بالرغم من أن الملكية لم تنته بل ظل الهمج يولون ويعزلون وأحيانا يقتلون . ورفع ناصر أو كل إلى العرش ولكنه كما تقول المخطوطة مكث قليلا ومضى إلى سبيله ولم يتبين لنا هذا السبيل وملك بعده طبل . وانحاز أبو ريدة الذى ورد ذكره فى جيش الملك عدلان إلى السافل وتحالف مع الشيخ الأمين ود مسمار شيخ العبدلاب . واسم أبى ريدة الكامل هو محمد خميس أبو ريدة من أصل فوراوى . وهو بهذا إما أن يكون ابنا لخميس المشهور فى حرب الحبشة أو لخميس آخر من جماعة الفور فى سنار آنذاك . وسنار حسب ماوصفها بونسيه وكرمب مدينة مفتوحة لكل الأجناس والأديان . وهناك رواية تقول بأن خميسا أرسله ناصر لقتل الأمين

ود مسمار ولكنه انضم إليه . وأصبح قائدا لخمسمائة فارس للعبيد الذين هربوا من سادتهم وأصبح فيما بعد بهذه القوة مصدر رعب وإزعاج للجميع بنهب القرى والقوافل التجارية وبقوته المرتزقة هذه يبيع نفسه لمن يدفع أكثر فى فترة الحروب الأهلية هذه .

والشيخ الأمين ود مسمار — وهو غير شخصية الأمين مسمار الذى قاد جيش سنار فى الحرب الحبشية سنة ١٧٤٤م — ظهر كأقوى شخصية فى العبدلاب منذ أيام عجيب المانجلك فى نضاله ضد الهمج وتثبيت دعائم ملك العبدلاب . فقد عزله الشيخ بادى ود رجب عقب توليه مشيخة الهمج بعد عمه أبى لكيلك ونفاه إلى القربين فى وسط الجزيرة . وهذا ما جعله يناصر القوى التى تجمعت مع الملك لمقاومة بادى وكانت ضربة الأمين هى القاضية لأنه كما تقول المخطوطة المعدلة « سيفه قاطع وذو معرفة تامة بالضرب » . ونلقاه مرة أخرى حين بعث رجب ولد محمد بأخيه ناصر لقتال الأمين لأنه على مايبدو لم يأمن ساحته بالرغم من أنه ناصره فى الثورة على بادى كما قدمنا بل إن ضربته هى التى جندلت بادى . وفى الهلالية تمكن الأمين بأولاده وعبيده وهم ستة عشر فقط من دحر قوة كبيرة يقودها ناصر . وهو الذى بمناصرة الشكرية خرب أريجى لأنها ناصرت أخاه الذى عينه الهمج شيخا . وتحالف مرة أخرى مع الملك عدلان ضد رجب وقتلوه .

وبانضمام قوتى الأمين وأبى ريدة بعضها إلى بعض رأى ناصر أن يتقدم بجيشه لقتالها وأن لا يقبع فى سنار وأخذ معه ملكه طبلا وقاتل الأمين وأبا ريده فى الحلفاية فى رواية وفى نواحى شندى فى رواية أخرى واندحر الشيخ ناصر وقتل ملكه طبل . وحدثت معركة أخرى فى الحلفاية بين الفريقين قتل فيها بادى الملك الذى ولاه ناصر ورباطا الذى ولاه الأمين وأبا ريدة . وولى بعد ذلك ناصرا الملك حسب ربه ورجع إلى سنار .

كل هـــذه الأحداث توالت متتابعة فى سنة واحدة وهى سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩ — ١٧٩٠م) . وكانت نهاية الشيخ الأمين على يد حليفه أبى ريدة وابن عمه عبد الله ود عجيب ومحمد نمر من الجعليين . فالضغينة بين عبد الله والأمين كما تقول مخطوطة الشيخ أحمد المعدلة هى ضرب عبد الدر أخى عبد الله وبين الأمين وأبى ريدة نزاع على أسلاب من درع وزرد لأحد زعماء الفونج المقتولين . وتقول رواية العبدلاب إن الأمين أرسل أبا ريدة إلى دنقلا ومعه أبناء الأمين . ولـكنه عندما وصل جبل الجلف وسط صحراء بيوضه تركهم يواصلون رحلتهم ورجع إلى ود بانقا حيث ساعد فى إخراج عبد الله عجيب ومحمد نمر من السجن وتحالف الجميع وصمموا على قتل الأمين قبل رجوع أبنائه من دنقلا . وجبن الجميع من مداهمة الأمين فى منزله إلا أن أبا ريدة أمر مرتزقته من النوبة بالصعود إلى سطح المنزل وأحدثوا ثقبا فيه تدلوا بوساطته إلى سرير الأمين وتناوشوه بحرابهم . وعند ما شعر بالنهاية وقد دخل الجميع عليه أشار لابن عمه وخصمه عبد الله عجيب أن يأخذ سيفه وألا يترك العبد أبا ريدة يأخذه منه وحدث هذا فى سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ — ١٧٩١ م) .

وبدهى أن يرجع أبناء الشيخ الأمين من دنقلا عند ما وافتهم الأخبار بمقتل والدهم والتجئوا فى بادىء الأمر لضريح الشيخ إدريس ود الأرباب وتقول رواية العبدلاب إن خليفة الشيخ إدريس حاول مرارا الصلح بين عبد الله عجيب وأبناء أخيه ولـكنه لم يفلح . وتقول مخطوطة الشيخ أحمد إن عبد الله الابن الأكبر للأمين على ما يبدو أخذ إخوانه وذهب للشيخ ناصر ووجده بالجديد (بين المسيد والخرطوم) وتوج عبد الله ابن الأمين شيخا على العبدلاب وسار الجميع إلى الحلفاية حيث قاتلهم أبو ريدة وعبد الله عجيب . وانهزم الشيخ ناصر وأقام بالصبانى ثلاثة أيام وعند ما اصطفوا للقتال مرة ثانية لم يقتتلوا لأن فقيها أمر تلميذه أن يؤذن فيقول له الله أكبر انهزمت الحربة من غير قتال » .

ورجع الشيخ ناصر إلى سنار وسار أبو ريدة بقوته المرتزقة إلى الطرفاية شرقى النيل الأزرق قبالة العاصمة . وكان أبو ريدة يدخل بالليل متخفيا إلى سنار ويتحادث مع أصدقائه ويظهر أنه كان مسيطرا على الضفة الشرقية حيث لم يجرؤ ناصر على مهاجمته إلى أن كانت سنة ١٢١٠هـ (١٧٩٦ — ١٧٩٧م) حيث عبر النيل إلى الشرق ومعه أخوه عدلان وهاجموا أبا ريدة وقتلوه وخربوا القرى فى المنطقة . ولنتم سلسلة ملوك سنار نذكر أن ناصراً ملك نوار وعندما ظهرت عليه علائم محاولة النفوذ قتله وولى بدلا عنه الملك بادى ولد طبل وهو الذى بقى إلى فتح إسماعيل بن محمد على . وتطرى المخطوطة كرم الشيخ ناصر وشجاعته ولكنها فى نفس الوقت تقول إنه كان ظالما حيث مد يده لأخذ أموال المسلمين وله محاباة لانه يغدق على أخصائه وينهب من غيرهم . ونذكر أنه قبض على الفقيه حجازى ابن أبى زيد وقتله عطشا وقتل الفقيه نجدى خنقا وقتل جماعة الحضارمة . ويروى أيضا أن فى عهده دخل السلطان هاشم وأولاد الأمين وبنوا جرار أرض الجزيرة ولحقهم إلى نواحى سيرو (جنوبى سنار) ولكنه تصالح معهم ورجع معهم إلى سنار وأكرمهم .

زالت الشخصيات ذات الخطورة فالأمين قتله أبو ريدة وهو تخلص من أبى ريدة وتصالح مع أولاد الأمين والسلطان هاشم وزال نهائيا خطر محاولة الفونج استرداد ملكهم . اطمأن الشيخ ناصر لحالة الاستقرار وبدأ باتخاذ أبهة الملك حيث عين الأرباب دفع الله ولد أحمد وزيرا وهذه أول مرة تسمع أن شيخ الهمج خلق هذا المنصب فى دولتهم إذ كانوا من قبل هم الوزراء . وجعل هذا الوزير حاجبا بينه وبين الرعية حتى إخوانه لا يسمح لهم بالدخول إليه إلا عن طريق الوزير وتعضد بعبيده الخواص ورفع من مكانتهم وأشركهم فى شئون تدبير الدولة وسنرى فيما بعد أن هذه ظاهرة أخرى خطيرة غرسها ناصر وتفرغ هو لملذاته وهواه . وإلى الآن كانت

الحرب الأهلية تستعر بين أبناء العم سواء عند الهمج أو العبدلاب . أما الآن فبين الإخوان . فقد تآمر على ناصر إخوانه بزعامة إدريس وعدلان واجتمعوا بعبود ومعهم أتباعهم وبعض الحانقين على ناصر . وذهب عدلان إلى الشرق وإدريس إلى المناقل لتنفير الناس وإثارتهم على أخيهم .

وترامى إلى مسامعه خبر غضب إخوانه عليه وأرسل لهم كوسطاء للصلح أصحاب المراتب من الفقهاء وبنات الشيخ محمد ولم يقبل إخوانه . ومن ضمن من أرسلهم الفقيه ولد عبد الحى حيث قال له عندما تبدى له رفضهم للصلح ، هذه شبطة ودخلا فيه . إما دفع الله وإما الطاقية وإما دق السيف العشية ، ومعناه أنها مشكلة داخلية بينه وبين إخوانه لا يحلها إلا تسليمه لهم وزيره دفع الله أو التنازل عن المشيخة . وبخلاف ذلك لابد من الحرب . وسار إخوانه من عبود قاصدين سنار وعندما نزلوا بقرية البقرة بالقرب من العاصمة أوقد ناصر النيران بالساحة العامة وحمل ذخائره . ومايحتاج إليه وخرج من سنار إلى الصعيد . ودخل إخوانه العاصمة وبقى بها ادريس واقتفى أثره عدلان . ولم يقم ناصر على النيل بل عبر إلى دبركس بالدندر وأقام بها قليلا ثم سار شمالا إلى الحلفاية ملتجئا للشيخ عبد الله ود عجيب . وبعدها دخل الجزيرة وتوجه إلى عبود . وأما إخوانه فنزلوا بأبى حراز بالشرق شمالى ود مدنى بقليل . فطلع عدلان إلى الغرب وسار بعبيده وأتباعه ولم يكن فى جيشه الفونج أو الهمج خوفا من أن يخدعهم ناصر . وعندما تقابل الفريقان خانه وزيره وصفيه الأول الأرباب دفع الله ود أحمد وتخلى عنه فى الساعة الحرجة حيث دخل جيش عدلان وسلم نفسه وانهزم الشيخ ناصر بعدها فلحقوه وقبضوا عليه ورجعوا به إلى أبى حراز حيث سلموه لصباحى ولد بادى ليقتله أخذا بثأر أبيه بادى قبل نحو ١٨ سنة . ودفن مع الشيخ دفع الله العركى . ويجب علينا أن نلاحظ

هنا ظاهرة اعتماد كل فريق على عبيده المدربين ولاحظنا قبل ذلك القوة التى عاث بها فسادا أبو ريدة ، وأجرها لكل فريق يدفع أكثر من العبيد المرتزقة .

وتولى إدريس المشيخة وعرف بالعدل والشجاعة والحلم وبشدته على اللصوص حيث عاقبهم بالقتل وأمنت البلاد التى يسيطر عليها نتيجة هذه السياسة حتى قيل إن التجار صاروا يتركون بضائعهم فى ساحة السوق دون أن تمتد إليها يد . واشتد على العربان لإخضاعهم . وبعد أن استقرت له الأمور فى منطقة الجزيرة تنبه إلى جهات السافل حيث سار إلى الحلفاية ضد عبد الله ود عجيب الذى وصلته عنه وشايات ولا ننسى أنه آوى خصمه ناصرا . وقتل عبد الله ود عجيب فى الحرب وشيخ على العبدلاب مكانه ناصر ود الأمين الذى ظل فيها إلى فتح محمد على . وعرف عن الشيخ عبد الله المقتول أنه قام باصلاحات دينية واجتماعية منها أنه أمر أهل السوق حتى الجزارين أن يذهبوا للجامع حين سماعهم الأذان للصلاة فى جماعة واشتد على اللصوص المعروفين بالعكاكيت حتى قطع دابرهم بضرب رقابهم وروج الزواج بتقليل المهور حتى أصبح للناس عادة من بعده . بقى إدريس بالحلفاية لإظهار سطوة الهمج وسار عدلان أخوه إلى دار الجعليين بجيشه حتى وصل وديانقا وكان الملك سعد زعيم الجعليين قد توفى آنذاك . فأرسل إلى محمد ولد نمر واعدا إياه بزعامة الجعليين فقدم ومعه عدد من إخوانه وبنى عمه غير أن نمرا وسعدا امتنعا لإحساسهم بمكيدة تدبر . وعند وصولهم إلى عدلان حبسهم . فمات الملك محمد فى الحبس من أذى الحديد وابنه إدريس الصغير فدته أمه بثلاثمائة أوقية ذهب وأطلق سراح الفحل لشفاعة الحاج سليمان ود أحمد فيه وذهب ببقية الأسرى طالبا نمرا فى الحاوية ولكن الأخير راوغه وهرب وتوسط المجاذيب فى الأمر ورجع عدلان إلى شندى حيث ولى الملك المساعد . وقفل راجعا إلى الحلفاية

إلى حيث يقيم أخوه الشيخ إدريس . وبعد أن أطاعتهم العبدلاب ودار الجعليين ونصبوا من ارتضوه عليها عادوا بأسرى أولاد نمر إلى سنار حيث ضربوا رقابهم . كل ذلك أخذا بثأر الإهانة التى لحقت بإخواتهم بنات الشيخ محمد حيث استرقهن الجعليون وجعلوهن سرارى عندما تآمروا فى عهد عدلان ملك الفونج ضد أولاد الشيخ محمد . وما كان لهذا النزاع بين زعامة الجعليين إلا أن ينتهى بحرب بينهم نتيجة خروج المساعد من شندى وخلفه عليهـا نمر . وهذه الأحداث انتهت فى سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) .

وتوفى الشيخ إدريس وخلفه أخوه عدلان فى سنة ١٢١٨هـ (١٨٠٢ — ١٨٠٤م) ولـكنه لم يقم ثلاثة أشهر فى المشيخة حيث قتل نتيجة مؤامرة قادها ابن أخيه محمد ولد رجب محمد أبى لـكيلك وكامتور والملك رانفى وبعض الفونج بالاتفاق مع بعض أسرة عدلان نفسه . ومحمد ولد ناصر المعروف بأبى ريس وكان أشد جرأة من الجميع وتولى المشيخة محمد ولد رجب ولـكن الأمور لم تستقم له . حيث تضاربت أهواء الأقطاب الأربعة الذين اشتركوا فى المؤامرة محمد ولد رجب والملك رانفى وكامتور ومحمد ولد ناصر . ولـكنه كان ظاهرا أن القوة فى يد ولد ناصر حيث يؤيده عبيد أبيه . ودخلت المنطقة فى منازعات مستمرة بين هذه الأطراف وأخيرا مات ولد ناصر غير أن عبيده أو بالأحرى عبيد والده ناصر شعروا بقوتهم وعاثوا فسادا مثل مافعل أبو ريدة وجنوده المرتزقة من قبل . وتجلى دور العبيد جليا فى هذه المنازعات الداخلية . وتجلى دور الأولياء والفقهاء فى المصالحات ومحـاولة التوفيق . ويروى صاحب المخطوطة قصة تسلط العبيد والعمل لحسابهم هذه المرة واختفى نفوذ الهمج لفترة من الوقت مثل ما انمحى نفوذ الفونج قبل ذلك . حتى إذا ما كنا فى سنة ١٢٢٣ (١٨٠٩) برز محمد ودعدلان كزعيم للهمج .

وفى السنة التالية لمشيخة محمد ولد عدلان ظهر وباء يسمى الكك مات فيه بعض الأولياء والصالحين وعمار البلد من تجار ومزارعين ، وسدت فيه البيوت وخربت الحلال ، ولكن صاحب الوباء رخاء . وتوفى هذه السنة ودضيف الله صاحب الطبقات . وكان على محمد عدلان إقامة دعائم ملكه من جديد لأن عهد الفوضى والانقسامات الذى سبقه مازال قائما . فلا بد أن يقضى على تجمعات العبيد وسيطرتهم وكذلك تجمعات الهمج المناوئة له . وعليه أن يبسط نفوذه مرة أخرى على جهات السافل . فى موسم جباية الضرائب من العرب بعث بأبناء عمومته من الهمج أمامه وو راءهم وزراؤه ليلحق بهم أخيرا . غير أن أبناء عمومته قبضوا على الوزراء ورجعوا لستار محاويين فتلقاهم بنحو ثلاثين فارسا من المشهورين من عبيد الشيخ ناصر الذين ظلوا على ولائهم لصاحب المشيخة فانهزم أبناء عمه رجب ورجع إلى سنار . وتصالح معهم ثم نقضوا الصلح ووقعت معركة أخرى تغلب عليهم فيها وأخيرا قتلهم جميعا ماعدا حسن وسوف نراه أخيرا يقتل ودعدلان ويأخذ بثأر إخوته قبيل دخول إسماعيل بن محمد على الجزيرة متجها لسنار . وقتل عبيد الشيخ ناصر وقضى بذلك على التكتلات المناوئة له فى سنار التى لا يطمئن إلى ولائها وفى سنة ١٢٢٨ﻫ (١٨١٣ م) بينما كان ودعدلان بالطرفاية قبالة سنار بالشرق حضر عنده الشيخ خليفة العبادى ومعه مبعوث من قبل محمد على للتفاوض مع حكومة سنار فى أمر المماليك الذين استقروا فى دنقلا ولكن مخطوطة الشيخ أحمد تسميه « أول جاسوس ظهر من العثمانية » . ويجب علينا ملاحظة أن السودانيين كانوا يعرفوه أن الحكم القائم آنذاك فى مصر هو حكم الأتراك . وعندما فتح محمد على السودان كانوا يسمونها حكومة الترك والحكام هم الأتراك والمهدى فى منشوراته وخطاباته جميعها عند الإشارة للهيئة الحاكمة لا يتحدث إلا عن الترك . وهـذا مما دعا الأهلين أن

تسمى حكومة الحكم الثنائى (إنجلترا ومصر) بعد فتح كتشنر التركية وما قبل المهدية بالتركية السابقة .

وفى سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٦ — ١٨١٨ م) دخل جزيرة سنار السيد محمد عثمان المرغنى بعد أن مر بدنقلا وكردفان وهو مؤسس طريقة الختمية التى أصبح لها شأن كبير فى البلاد إلى وقتنا الحاضر . وكانت سنو محمد عدلان الأخيرة فى حرب مع مشائخ خشم البحر ودخل فى خصام مع الشيخ أحمد الريح خليفة العركيين . فى خصومة داخلية بين العركيين ناصر خصوم الشيخ أحمد الريح حيث بذلوا مالا وعاونهم الوزير دفع الله ودأحمد وكانت له خصومه مع الشيخ أحمد الريح . فأرسل ودعدلان للشيخ أحمد يعفيه من خلافة العركيين وانضم إليه خصم قديم لود عدلان . وهو حسن ودرجب الذى أبقاه ود عدلان من القتل حينما قتل جميع أولاد عمه رجب . وبينما هو يتأهب لملاقاة إسماعيل بن محمد على الذى غزا السودان وبدأ بمخاطبة ملوك الجعليين وكردفان والقبائل الأخرى بالتجمع والمقاومة بينما كان يفعل ذلك تمت المؤامرة وقتل محمد عدلان آخر من لبس طاقية مشيخة الهمج .

والآن وقد تابعنا قصة تطور دولة الفونج يجدر بنا أن نقف قليلا لنبرز المعالم الرئيسية فى الصورة . فدخول العرب التدريجى فى السودان على مدى القرون منذ الفتح الإسلامى لمصر جعلهم يتغلغلون فى داخله فى البادية وعلى ضفاف النيل ويؤثرون بالتدريج على السكان الأصليين وهم بدورهم يتأثرون بتقاليد البلاد ويخرج من ذلك مجتمع عربى إسلامى فى روحه وصفاته مع احتفاظه ببعض التقاليد التى كانت موجودة قبله . وامتاز العرب عن من قبلهم من الأمم التى اتصلت بالسودان أنهم دخلوا فى موجات كبيرة لأن الصحراء وهم أبناؤها لم تقف سدا أمامهم ولأنهم وجدوا فى السودان مجالا حيويا وجوا حرا لأنفسهم وإبلهم ومواشيهم وأغنامهم ولأن بريق الذهب فى مناجم الصحراء الشرقية جذبهم إليها ولأن توالى حكومات غير عربية الأصل على مصر نفرهم من الإقامة بها .

وكان السودان متصلا بالخارج عن طريق ميناء سواكن وعن طريق القوافل التقليدى مع مصر لأنه فى حاجة لمصنوعات ومنتجات الخارج ولأن مصر وعن طريقها أوروبا فى حاجة لمنتجات السودان الزراعية والحيوانية . وعرف الملوك والحكام فى السودان ضرورة هذه الشرايين الحيوية التى تربطهم بالخارج فسهلوا المواصلات وحفظوا الأمن فى الطريق مما جعل الزوار الأجانب يطرون حالة الأمن والكرم الذى يلقونه من الحكام وكذلك التسامح مع الغريب مما جعلهم يصفون عاصمة الدولة بأنها مدينة مفتوحة يتمتع فيها الأجنبى بكامل حريته على اختلاف أجناسهم وأديانهم بل تحبب لهم الإقامة بها .

وللحكم فى سنار تقاليده الموروثة بطقوس خاصة ومجلس للشورى يرفع المرشح من بيت الملك إلى العرش ويخلعه إلى أن قضى على هذا الجهاز التقليدى الشيخ محمد أبو لكيلك وأقام حكم الفرد وهذا مما أدى إلى حالة من الفوضى وعدم الاستقرار بعد موته بالرغم من أنه كان من أقدر وأكفأ الشخصيات التى أنجبها السودان . وحكم الأقاليم كان على مستوى الأقاليم أو القبيلة التى تقطن منطقة خاصة أو القبيلة التى تنساح فى مساحة واسعة حسب المواسم الشتوية . والشيخ أو الحاكم الإقليمى أو القبلى يجلسه على كرسى الرياسة بطقوس خاصة ملك الفونج أو بعده شيخ الهمج عندما سيطروا على سنار أو مانجل العبدلاب نيابة عن الملك فى منطقته من أربجى شمالا . وهذا بدوره يرتفع إلى المانجلية أو المشيخة بوساطة ملك سنار أو شيخ الهمج فى عهد سيطرتهم .

ولم تكن سلطة الحكومة المركزية فى سنار إذا تسامحنا وسميناها بذلك قوية على تلك المشيخات والحكومات الإقليمية لأننا شاهدنا استقلال الشايقية وحوادث تمرد على سلطة سنار أو العبدلاب .

وشاهدنا حربا بين الفونج والعبدلاب أدى إلى مقتل الشيخ عجيب المانجلك أعظمهم شأنا . وتطورت هذه الحروب الأهلية والانقسامات خاصة بعد تسلط الهمج على البيوت الحاكمة نفسها بين أبناء العم وحتى بين الأخ وأخيه . ورأينا أن القوة الحربية تعتمد فى أساسها على الخيل وعلى ما يمتلكه الحاكم من مماليكه الخواص . وهذا ما جعل الفونج سواء فى نشأة ملكهم أو فى احتفاظهم به وبسط نفوذهم على الأراضى التى تقع إلى الشمال منهم أشد قوة ومنعة لأنهم يقطنون فى أرض بها إمكانيات ضخمة من موارد الخيل وتوافر العلف والذرة لعليقها وقريبين من موارد الرجال الذين جعلوا منهم مماليك خواص دربوهم وزودوهم بالأسلحة . ورأينا كيف أنه فى عهد الفوضى والانقسامات كون هؤلاء المماليك قوة عملت لحسابها مدة من الزمن وأن أباريدة كون منهم قوة من المرتزقة أدخلت الرعب والفزع وعاثت فى الأرض وتحالفت مع بعض القوى ثم خانتها وهكذا دواليك .

ولا ننسى دور العلماء والأولياء الصالحين فى نشر التعاليم الإسلامية وإرشاد الناس منذ تأسيس الدولة وأكرام الحكام لهم مما جعلهم يتوافدون للسودان من شتى الأقطار الإسلامية الأخرى . وخاصة مشايخ الطرق الصوفية والأثر البعيد الذى تركوه فى المجتمع السودانى والذى ظلت آثاره ظاهرة إلى يومنا هذا . وكان الحكام يلجئون إليهم عند الملمات للتضرع إلى الله لإزالة المحن واتقاء شر الأعداء وكانوا ملجأ للخائف من سطوة الحاكم أو الطالب بالثأر وفى أغلب الأحيان يقف من طلبهم عند عتبة خلوة الولى الصالح الحى أو ضريح الولى الميت . وكان لهم دورهم كحمامات سلام فى عهد الفوضى والانقسامات يترددون بين الفريقين بالصلح والمصافاة . لهذه الرسالات التى كانوا يؤدونها للمجتمع السودانى آنذاك رفعهم المجتمع وأكرمهم واهتدى بهم وظل الكثيرون يؤدون لهم

فروض الإجلال والتبعية حتى بعد زوال هذه المسببات .

وأغانينا وفنوننا الشعبية أخذت بعض إلهامها من قصص البطولة فى الذود عن القبيلة أو العائلة ومن إغاثة الملهوف والجائع وخاصة فى أغانى الدلوكة حيث نجد أغانى العبدلاب التى تقص هذه البطولات على ضفاف النيل الأزرق بين أربجى القديمة وحلفاية الملوك ويتكرر اسم الشيخ الأفين ولعله الشيخ الأمين ود مسمار الأخير فى عهد الهمج . ولكل منطقه أغانيها التى تحكى قصص بطولات رجالها لتكون حافزا للشباب يقتفون آثار هؤلاء الرجال . وأخيراً كانت القبيلة هى المجتمع الصغير الذى تدور حوله الوطنية بالذود عن حياضه والتضحية فى شأنه . ولكننا شاهدنا تكتلا قوميا على أساس دينى عندما غزت الحبشة البلاد وأصبحت قبالة سنار . ولو تعرضت البلاد لمثل هذا الغزو الأجنبى مرات عدة لتكونت قومية على مستوى السودان بكامله منذ ذاك الوقت .

ملوك الفونج

الملك	تاريخ التولية هجرية	مدة حكمه	تاريخ التولية ميلادية	ملاحظات
عمارة دونقس	٩١٠	٣٠	١٥٠٤	
نايل	٩٤٠	١٧	١٥٣٤	
عبد القادر الأول	٩٥٧	٨	١٥٥١	
عمارة بن نايل	٩٦٥	١١	١٥٥٨	يعرف بعمارة أبي سكاكين وقد خلع
دكين بن نايل	٩٧٦	١٧	١٥٦٩	
دورة	٩٩٤	٣	١٥٨٦	خلع
طبل بن عبد القادر	٩٩٦	٣	١٥٨٨	
أونسه الأول	١٠٠٠	١٣	١٥٩٢	خلع
عبد القادر الثانى	١٠١٢	٤	١٦٠٤	خلع
عدلان	١٠١٦	٥	١٦٠٦	خلع
بادى الأول	١٠٢٠	٦	١٦١١	بادى سيد القوم تربع بعد موقعة كركوج مباشرة
رباط	١٠٢٥	٣٠	١٦١٦	هاجمه سونيوس فى الحرب الحبشية الأولى
بادى الثانى	١٠٥٤	٣٨	١٦٤٥	بادى أبو دقن
أونسة الثانى	١٠٩٢	١٢	١٦٨٠	
بادى الثالث	١١٠٣	٢٤	١٦٩٢	بادى الأحمر
أونسه الثالث	١١٢٨	٣	١٧١٦	خلع
نول	١١٣٢	٤	١٧٢٠	
بادى الرابع	١١٣٦	٣٨	١٧٢٤	بادى أبوشلوخ — خلع — آخر الملوك ذوى السلطة
ناصر	١١٧٥	٨	١٧٦٢	خلع
إسماعيل	١١٨٣	٣	١٧٦٩	مدة تغلب الهمج على الملك
عدلان بن إسماعيل				
أوكل				
طبل				
بادى				
حسب ربه				
بادى				

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة